التعليق على

بيان فضل علم السلف على علم الخلف



التَّعليقُ على

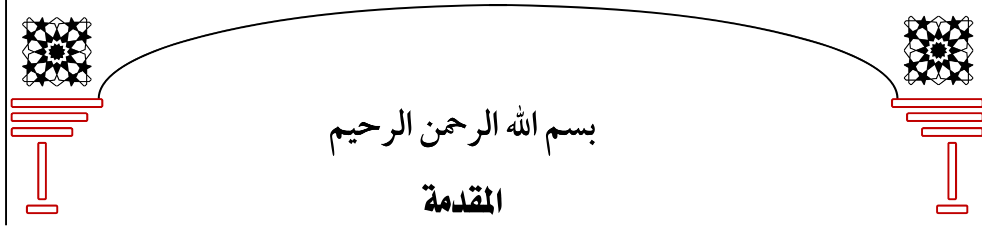
بَيانِ فَضْل عِلْمِ السَّلَف
عَلَى عِلْمِ الخَلَف

تأليفُ الحافظِ ابنِ رجَب الحنبليِّ رحمه الله تعالى

لفَضِيلَةِ الشَّيخِ الأُسْتاذِ الدُّكْتُور

سَامِي بْنِ مُحَمَّدٍ الصُّقير

غفَرَ اللهُ لَهُ ولِوَالِدَيهِ وللمُسلِمِينَ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداه، أما بعد:

ففي هذا اليوم: يوم السبت، الأول من ربيع الثاني لعام أربعين وأربعمائة وألف، نلتقي في هذا المكان الطيب المبارك، للتعليق على هذه الرسالة المختصرة من حيث اللفظ، الجامعة من حيث المعنى، وهي: (**بيان فضل علم السلف على علم الخلف**)، للحافظ: ابن رجب رحمه الله تعالى.

والفضل بمعنى الزيادة، والسلف هذه الطلق تطلق ويراد بها معنيان:

المعنى الأول: السلف معتقدًا.

والمعنى الثاني: السلف زمنًا.

فأما الأول وهي: السلف معتقدًا، فالمراد: كل من كان على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهم أهل السنة والجماعة، فكل من سار على طريق الرسول عليه الصلاة والسلام وطريق أصحابه اعتقادًا وعملًا فهو من السلف، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»، فكل من كان متمسكًا بهدي الرسول عليه الصلاة والسلام وهدي

أصحابه وسار على طريقهم معتقدًا ومنهجًا وعملًا فهو من السلف.

وأما الإطلاق الثاني: فهو السلف زمنًا، وقد اختلف العلماء رحمهم الله في تحديده، فقيل: إنه خاص بالصحابة، وقيل: الصحابة والتابعون.

والقول الثالث: أن المراد بالسلف الصحابة والتابعون وتابعوهم، وهذا القول أرجح الأقوال، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني، ثم الذي يلونهم، ثم الذين يلونهم»، فالمراد بالسلف زمنًا هم القرون الثلاثة المفضلة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وكذلك ابن رجب وغيرهما من المحققين، وقد يتسامحون ويدخلون بعض تابعي التابعين، ولذلك تجد أن شيخ الإسلام رحمه الله أحيانًا يقول: السلف، ثم يذكر الإمام أحمد ومن كان في زمنه، لكن عند الإطلاق: السلف زمنًا هم القرون الثلاثة المفضلة.

والحاصل: أنه إذا قيل: السلف؛ فتارة يراد بهم: السلف معتقدًا وعملًا، وهو كل من كان على طريق الرسول عليه الصلاة والسلام وطريق أصحابه، وتارة يراد: السلف زمنًا، وهذا خاص بالقرون الثلاثة المفضلة.





بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، رب يسر وأعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرًا، أما بعد؛

فهذه كلمات مختصرة في معنى العلم، وانقسامه إلى علم نافع وعلم غير نافع، والتنبيه على فضل علم السلف على علم الخلف؛ فنقول وبالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله:

قد ذكر الله تعالى في كتابه العلم: تارة في مقام المدح وهو العلم النافع، وتارة في مقام الذم وهو العلم الذي لا ينفع؛ فأما الأول فمثل قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]، وقوله: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} [آل عمران: ١٨]، وقوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

وما قص سبحانه من قصة آدم وتعليمه الأسماء، وعرضهم على الملائكة وقولهم: {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]، وما قصه سبحانه وتعالى من قصة موسى عليه السلام وقوله للخضر: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف: ٦٦]، فهذا هو العلم النافع.

التعليق:

ضابط العلم النافع: هو الذي يورث خشية الله تعالى، كما قال الله تعالى: {إِنَّمَا

يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، ومعلوم أن العلم إذا أورث الخشية أورث العمل؛ لأن الذي يخشى الله عز وجل يعمل، فعلى هذا نقول: العلم النافع هو العلم الذي يورث خشية الله تعالى، ومِن لازِم كونه يورث خشية أن يكون الإنسان فيه مخلصًا متبعًا؛ لأن العلم الذي يكون فيه شيء من القدح في الإخلاص أو القدح في المتابعة لا يورث كمال الخشوع والخضوع والذل لله عز وجل.

⌘ ⌑ ⌘

وقد أخبر الله عن قوم: أنهم أوتوا علمًا ولم ينفعهم علمهم، فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، وقال: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

التعليق:

ومن علامات العلم النافع أيضًا كما في الآيات: أن يظهر أثره على صاحبه وعلى من حوله:

- أن يظهر أثره على صاحبه في عقيدته وفي عبادته وفي تعامله وفي سلوكه ومنهجه، ولهذا قال الله عز وجل: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

- كذلك أيضًا يظهر أثره على من حوله بالتوجيه والإرشاد والنصح، ولذلك تجد أن بعض الناس قد يرزقه الله عز وجل علمًا ينتفع به في نفسه، ولكنه يقصر في جانب نفع الناس، فتجده مع الناس كأنه من العامة، لا ينتفع الناس به لا توجيهًا ولا

إرشادًا ولا وعظًا، تجد أنه مثلًا يصلي في مسجد وليس له أثر في هذا المسجد من حيث توجيه الناس وإرشادهم وتعليمهم، وهذا في الواقع قصور أو تقصير من هذا.

فالواجب على من رزقه الله عز وجل علمًا ولو قليلًا؛ لأن القليل مع الإخلاص لله والبركة يجعله الله كثيرًا وينفع به، فالمشروع لمن رزقه الله علمًا أن يحرص على توجيه الناس، وعلى إرشادهم، فالناس في حاجة إلى التوجيه والإرشاد والنصح، ولو لم يكن من ذلك إلا التذكير، فقد يكون الإنسان عنده علم لكنه غافل، فلا بد من الموعظة، ولا بد من التذكير، ولهذا كان من هدي النبي عليه الصلاة والسلام: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة.



وقال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} **[الأعراف: ١٦٩] الآية، وقال:** {وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} **[الجاثية: ٢٣] على تأويل من تأول الآية: على علم عند من أضله الله.**

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له فقوله في السحر: {وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} **[البقرة: ١٠٢].**

التعليق:

السحر علم لكنه علم مذموم، والسحر في اللغة: ما خفي ولطف سببه، فكل شيء خفي ولطف سببه يسمى سحرًا، وأما شرعًا فالسحر هو: عزائم ورقى وعقائد

تؤثر في القلوب والأبدان؛ فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وبين زوجه، كما قال عز وجل: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢]، والسحر ينقسم باعتبارات متعددة:

أولًا: باعتبار أصله.

ثانيًا: باعتبار حقيقته.

ثالثًا: باعتبار حكمه.

فأما الأول، وهو أقسام السحر باعتبار أصله، فالسحر باعتبار أصله ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ما يكون بالعقد والرقى والطلاسم التي يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، فلكل سحر خدم من الشياطين تخدمه، وهذا النوع من أنواع السحر لا يتحقق إلا بالتقرب إلى الشياطين.

والقسم الثاني: ما يكون بالأدوية والعقاقير التي تؤثر في بدن المسحور وفي عقله وفي إرادته، ومنه: العطف والصرف، ولهذا قال الله تعالى: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢].

وأما السحر باعتبار حقيقته فينقسم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: سحر تخييلي، يعني عن طريق الخيالات، وذلك بأن يقع عن طريق الخداع والتخييلات التي ليس لها حقيقة، وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: ٦٦]، وقال عز وجل: {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} [الأعراف: ١١٦]، فهذا سحر عن طريق التخييل، وإلا

فهو ليس له حقيقة.

والقسم الثاني: سحر حقيقي، وهو ما يؤثر على القلب والعقل والإرادة، كما قال عز وجل: {فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ} [البقرة: ١٠٢]، وقال عز وجل: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} [الفلق: ٤]، ولولا أنه حقيقة لما أمر الله عز وجل بالاستعاذة منه، فعلى هذا نقول: السحر من حيث كونه حقيقة أو خيال قسمان؛ قسم منه يكون عن طريق التخييل والخداع، كخفة اليد، والنوع الثاني: سحر حقيقي.

وأما السحر باعتبار حُكمه فينقسم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: ما يكون شركًا أكبر مخرجًا عن الملة، وهو ما كان بواسطة الشياطين بالتقرب إليهم والتعلق بهم فيتقرب إليهم بما يحبون، ربما تقرب إليهم بالسجود لهم أو تدنيس المصحف نسأل الله العافية، أو ما أشبه ذلك، بحيث يخدمهم ويقوم بما يريدون، ولهذا قال الله عز وجل: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} [البقرة: ١٠٢]، وهذا هو المراد بالسحر أو الساحر عند الإطلاق.

والقسم الثاني: ما يكون فسقًا، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير والتعاويذ، فهذا ليس سحرًا حقيقة وإنما هو شعوذة؛ لأن تأثيره يكون بهذه الأدوية وهذه التعويذات، وليس بالاستعانة بالجن والشياطين، وتسميته بالسحر إنما هو على سبيل التجوز وإلا فليس هو سحرًا في الحقيقة، كتسمية القول البليغ سحرًا كقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن من البيان لسحرًا**»، وهذا فسق، والواجب أن يعزر فاعله.

الخلاصة: أن السحر باعتبار أصله قسمان، وباعتبار حقيقته قسمان، وباعتبار حكمه قسمان، فباعتبار أصله؛ الأول: ما يكون بالرقى والتعاويذ والطلاسم، والثاني: ما يكون بالعقاقير، وباعتبار حقيقته: منه ما هو تخييل تخيلات وشعوذة ومنه ما يكون حقيقة، وباعتبار حكمه: منه ما يكون كفرًا ومنه ما يكون فسقًا.



وقوله: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} **[غافر: ٨٣]، وقوله تعالى:** {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} **[الروم: ٧].**

وكذلك جاءت السنة بتقسيم العلم إلى نافع وإلى غير نافع، والاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، وسؤال العلم النافع، ففي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»، وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي بعضها: «ومن دعاء لا يسمع» وفي بعضها: «أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

التعليق:

قوله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إني أعوذ بك** » يعني ألتجئ وأعتصم بك «**من علم لا ينفع**» يتعلم علمًا لكن إما أن يكون هذا العلم غير نافع أصلًا، أو يكون نافعًا ولكنه لا ينتفع به، فالتعوذ في قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع**» يعني

لا يكون نافعًا من أصله، أو يكون نافعًا لكن لا ينتفع الإنسان به.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**ومن قلب لا يخشع**» يعني لا يذل ولا ينكسر لله عز وجل.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**ومن نفس لا تشبع**» وهذا يشمل النفس الحسية والمعنوية، يعني لا تشبع من الطعام ولا تشبع مما يتعلق بالدنيا وزينتها.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**ومن دعوة لا يستجاب لها**» بحيث يدعو الإنسان الله عز وجل ولكن لا يستجاب له، وأسباب حرمان الإجابة فالإنسان قد يحرم الإجابة لأسباب، منها:

أولًا: أن يدعو الله عز وجل بقلب غافل، فلا يدعوه سبحانه وتعالى وهو موقن بالإجابة، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإن الله لا يستجيب من قلب غافل**»، فلا يستجاب للإنسان الذي يدعو ويقول: أجرب لعلي يستجاب لي، فهذا لا ينفع، بل لا بد أن تكون موقنًا بإجابة الله عز وجل لدعائك، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة ولكني أحمل هم الدعاء. لأن الله عز وجل أمر عباده بدعائه ووعدهم بإجابته.

ثانيًا: أن يستعجل إجابة الدعاء، وقد ثبت في صحيح مسلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجب لي؛ فيستحسر ويدع الدعاء**»، ولا ينافي هذا أن يسأل الإنسان الله عز وجل أن يعجل له دعوته فهذا باب وهذا باب، نقول: لا يدخل في

هذا أن تسأل الله عز وجل أن يعجل، ولهذا كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام في دعاء الاستسقاء: «عاجلًا غير رائث»، لكن كونك تدعو الله وتستعجل الإجابة هذا سبب من أسباب حرمان الإنسان.

ثالثًا -وهو من أهمها-: اجتناب أكل الحرام، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، قال: «ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام؛ فأنى يستجاب له».

رابعًا: أن يدعو بإثم أو قطيعة رحم.

فعلى الإنسان أن يحرص عند دعاء الله عز وجل أن يتأدب بالآداب التي يكون دعاؤه فيها حريًا بالإجابة، **ومن أهمها**:

- أن يخلص لله عز وجل في دعائه، قال الله: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ٦٥]، وقال: {فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ٢]، والدعاء من أعظم العبادة، وقال الله عز وجل: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠].

- ومنها أيضًا: الإلحاح، أن يلح على الله عز وجل في الدعاء؛ لأن الإلحاح دليل على صدق رغبة الإنسان في ما عند الله، فكلما ألححت على الله عز وجل في الدعاء كان ذلك أدعى إلى قبول الدعاء.

- ومنها أيضًا: رفع اليدين ورفع اليدين سبب للإجابة، يرفع يديه.

- ويستقبل القبلة.

- يتحين ويتحرى الأوقات والأزمان التي يكون الدعاء فيها حريًا بالإجابة، كثلث الليل الآخر، وما بين الآذان والإقامة، في حال السجود، عند إفطار الصائم، دعاء المسافر وهكذا، وهذا منشور ومبثوث في سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وليعلم أن كل من أقبل على الله عز وجل بصدق وإخلاص وعلم الله عز وجل صدقه في إخلاصه وطلبه؛ فإن الله عز وحل لا يخيب رجاءه أبدًا، هو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، لكن التقصير يكون من العبد، فأنت أقبل على الله وأظهر افتقارك إلى الله وإنابتك إليه سبحانه وتعالى وأبشر بالخير؛ فما أقبل أحد على الله عز وجل إلا أعطاه سُؤْله وزيادة، لأن الله عز وجل وعد وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، وقال: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، وجاء عن النبي في الحديث عليه الصلاة والسلام: «إن الله حيي كريم، يستحي من عبده» تأمل قوله: «يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا»يعني خاليتين.

⌘ ⌑ ⌘

وخرج النسائي من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، وأعوذ بك من علم لا ينفع»، وخرجه ابن ماجة ولفظه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»، وخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا».

التعليق:

وهذا الحديث يدل على أن الإنسان بالنسبة للعلم: علم نافع ينتفع الإنسان به،

وعلم نافع لا ينتفع الإنسان به، وعلم ضار، فالعلم إما أن يكون؛

أولًا: نافعًا وينتفع الإنسان به بالعمل ويورث خشية الله.

ثانيًا: أن يرزقه الله عز وجل علمًا لكن لا ينتفع به.

ثالثًا: أن يكون العلم ضارًا لا ينفعه، بحيث يضيع أوقاته سبهللًا في علوم: إما أنها لا فائدة منها، أو تعود عليه بالضرر، فالعلوم الضارة كتعلم السحر ونحوه، وقد يتعلم الإنسان علومًا أو علمًا ليس فيه منفعة ولا مضرة، وهذا في الواقع مضيعة للوقت، فاحرص على العلم النافع واحرص على العمل بهذا العلم، فيرزقك الله عز وجل علمًا نافعًا تنتفع به في نفسك وتنفع به غيرك.

⌘ ⌑ ⌘

وخرج النسائي من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وارزقني علمًا تنفعني به»، وخرج أبو نعيم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إنّا نسألك إيمانًا دائمًا فرب إيمان غير دائم، وأسألك علمًا نافعًا فرب علم غير نافع»، وخرج أبو داود من حديث بُريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ منَ البيان لسحرًا، وإن من العلم جهلًا».

التعليق:

يقول صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ منَ البيان لسحرًا**» (من) هنا يحتمل أن تكون للتبعيض فيكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، ويحتمل أن من

هنا لبيان الجنس فيكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر، ولكن المعنى الأول أقرب، «إِنَّ منَ البيان» أن تكون من للتبعيض.

وقوله: «إِنَّ منَ البيان لسحرًا» البيان بمعنى الفصاحة والبلاغة، «إِنَّ منَ البيان لسحرًا» وفي لفظ: «سحر» أي: أنه يعمل عمل الساحر ويؤثر كتأثيره؛ فيجعل الحق باطلًا والباطل حقًا، فمعنى «إِنَّ منَ البيان لسحرًا» أ، بعض البيان يكون فيه قوة وتأثير بحيث يقلب الحق باطلًا والباطل حقًا.

وقوله: «إِنَّ منَ البيان لسحرًا» هذا ليس مدحًا ولا ذمًا، بل هو لبيان الواقع، هذا الكلام من الرسول عليه الصلاة والسلام ليس ذمًا ولا قدحًا بل هو بيان للواقع؛ لأن البيان مدحًا أو قدحًا بحسب ما يقصد به من خير أو شر، فهذا الحديث يقول: «إِنَّ منَ البيان لسحرًا» يعني بعض الفصاحة والبلاغة قد تكون كالسحر في تأثيرها على الفكر والعقل، ولهذا قال ابن الرومي:

في زخرف القول تزيين لباطله ** والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول: هذا مجاج النحل تمدحه ** وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحًا وذمًا وما جاوزت وصفهما ** حسن البيان يري الظلماء كالنور

فقوله:

في زخرف القول تزيين لباطله ** والحق قد يعتريه سوء تعبير

يعني قد يكون إنسان عنده حق لكن لا يستطيع أن يعبر عن هذا الحق، وصاحب الباطل يكون عنده زخرف من القول فيزين قوله فيجعل الباطل حقًا،

ولهذا قال:

تقول: هذا مجاج النحل تمدحه ✻✻..............................

العسل تقول: هذا مجاج النحل مدح

.........................✻✻ وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

ففرق بين المجاج وبين القيء، إنسان قدم لك عسلًا وقال: هذا مجاج النحل، هذا مدح فتشتهيه وتأكله، ويقول لك: هذا قيء الزنابير، فتنفر عنه، كيف تآكل قيئًا؟!.

⌘ ⌑ ⌘

وإن صعصعة بن صوحان فسر قوله: «إن من العلم جهلًا» أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك، ويُفسر أيضًا: بأن العلم الذي يضر ولا ينفع جهل؛ لأن الجهل به خير من العلم به، فإذا كان الجهل به خيرًا منه فهو شر من الجهل، وهذا كالسحر وغيره من العلوم المضرة في الدين أو في الدنيا.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير بعض العلوم التي لا تنفع، ففي مراسيل أبي داود عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، ما أعلمَ فلانا؟ قال: بم؟ قالوا: بأنساب الناس، قال: علم لا ينفع وجهالة لا تضر»، وخرجه أبو نعيم في كتابه: رياضة المتعلمين من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وفيه: «إنَّهم قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب، وأعلم الناس بالشعر، وبما اختلفت فيه العرب» وزاد في آخره: «العلم ثلاثة؛ ما خلاهن فهو

فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة» وهذا الإسناد لا يصح، وبقية دَلَّسهُ عن غير ثقة، وآخر الحديث خرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا: «العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة» وفي إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وفيه ضعف مشهور.

وقد ورد الأمر بأن يُتعلم من الأنساب ما توصل به الأرحام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»، خرجه الإمام أحمد والترمذي، وخرجه حميد بن زنجويه من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا» وفي إسناد روايته ابن لُهيعة.

التعليق:

وذلك لأن التعمق في مثل هذه العلوم قد يشغل وقت الإنسان وليس فيه فائدة، فالتعمق مثلًا في مسألة الأنساب قد يصل بالإنسان إلى درجة العصبية القبلية، بحيث يتعصب لهذه القبيلة أو لقبيلته.

كذلك أيضًا: تعلم العربية، علم العربية من الأمور الضرورية لطالب العلم، لا بد لطالب العلم أن يتعلم العربية، وذلك أن الله عز وجل أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فلا بد منه لمن أراد أن يستنبط الأحكام من القرآن، وأن يعرف معاني القرآن،

وأن يتدبر القرآن، وأن يتعقل القرآن؛ لا بد أن يكون عنده علم باللغة العربية، وهكذا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فالقرآن لا بد أولًا من تلاوته، وثانيًا: أن يفهم المعاني ويتدبر ويتعقل، والتدبر والتعقل إنما يكون لمن فهم المعنى، لا يمكن للإنسان أن يتدبر ويتعقل ويتأثر بالقرآن إلا إذا كان قد فهم المعنى، وفهم المعنى يتوقف على معرفة اللغة العربية، ثم يأتي الأمر الآخر وهو العمل.

ولذلك كما تقدم لنا كانت تلاوة القرآن على أنواع ثلاثة: تلاوة لفظية، وتلاوة معنوية، وتلاوة عملية:

النوع الأول: تلاوة لفظية، وهي أن يقرأ القرآن لفظًا، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**».

النوع الثاني: التلاوة المعنوية، وهي التدبر والتفكر والتعقل، قال الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء: ٨٢]، وقال عز وجل: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، هذا النوع من التلاوة المعنوية لا يتحقق إلا بمعرفة المعنى وفهم المعنى، فلا بد من فهم المعنى؛ فعلى هذا تعلم العربية أمر ضروري لمن أراد التفكر والتدبر والتعقل.

النوع الثالث: التلاوة العملية، وهي الثمرة والنتيجة بحيث يعمل بهذا القرآن، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: {يا أيها الذين آمنوا} فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به وإما شر تنهى عنه.

هذه الأنواع الثلاثة من التلاوة هي التي كان عليها سلف الأمة رحمهم الله، ولهذا قال أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزها حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وهذه هي أنواع التلاوة: (تعلمنا القرآن) يعني لفظًا، و(العلم) يعني فهمًا تعقلنا به وفهمنا، و(العمل) وهذا هو النوع الثالث وهو التلاوة العملية.



وخرج أيضًا من رواية نعيم بن أبي هند قال: قال عمر رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم ثم أمسكوا، وتعلموا من النسبة ما تصلون به أرحامكم، وتعلموا ما يحل لكم من النساء ويحرم عليكم ثم انتهوا.

التعليق:

تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم، وكذلك أيضًا ما يعرف به الإنسان أدلة القبلة، فتعلم النجوم قد يكون واجبًا إذا توقف عليه امر واجب، وقد يكون مستحبًا إذا توقف عليه أمر مستحب، فتعلم النجوم في الأصل من الأمور المباحة، والقاعدة: أن كل شيء مباح تجري فيه الأحكام الخمسة: فقد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًا، وقد يكون محرمًا، وقد يكون مكروهًا.. إلى غير ذلك.

وأضرب مثالًا: شراء السيارة، إذا أراد إنسان أن يشتري سيارة فما حكم شراء

السيارة؟ نقول: الأصل أنه مباح، لكنه قد يجب إذا توقف عليه أمر واجب، يعني مثلًا: لا يستطيع الذهاب إلى الحج إلا بالسيارة، يجب أن يشتري سيارة؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو أراد أن يبر والديه أو يصل رحمه بالسيارة فيجب، وقد يكون مستحبًا كما لو اشترى سيارة مثلًا لزيارة صديق أو مريض أو نحو ذلك، وقد يكون محرمًا اشتراها لإيذاء الناس بالتفحيط ونحو ذلك، أو للذهاب إلى البراري وفعل المحرمات؛ فكل مباح تجري فيه الأحكام الخمسة.

كذلك أيضًا يقول: **وتعلموا من النسبة ما تصلون به أرحامكم، وتعلموا ما يحل لكم من النساء ويحرم عليكم ثم انتهوا**، يعني المحرمات من النساء، هذا أيضًا تعلمه من الأمور الواجبة؛ حتى لا يقع الإنسان في محظور، فيجب أن يتعلم المحرمات من النساء، سواء كن محرمات من النسب أو من الرضاع أو من الصهر أو غير ذلك، والمحرمات من النسب هن كما قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ} [النساء: ٢٣]، هؤلاء سبع محرمات بالنسب.

وهنا نذكر ضابطين في المحرمات بالنسب للفائدة، قال ابن رجب رحمه الله: إن الإنسان يحرم عليه أصوله وفروعه وفروع أصله الأدنى وفروع أصله الأعلى لصلبهم فقط، ونشرحها لأن فيها صعوبة:

يقول: الإنسان يحرم عليه أصوله كأمهاته وجداته وإن علون.

وفروعه البنات وبنات الابن وبنات البنت وإن نزلن.

وفروع أصله الأدنى، وأصله الأدنى هو الأب، وفروع الأب: الأخوات وفروعهن.

وفروع أصله الأعلى الجد لصلبهم فقط، فالعمة من جهة الأب والخالة من جهة الأم لصلبها دون فروعها فبنت العمة بنت الخالة مباحة.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله قاعدة أيسر من هذا وسهلة جدًا، وهي أن: جميع النساء الأقارب كلهن محرمات إلا أربعة: بنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة، فجميع النساء الأقارب التي بينك وبينها ولادة كلهن محرمات إلا أربعة: بنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة، لقوله عز وجل: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ} [الأحزاب: ٥٠]، وهذا أيسر، بأن يقال: كل النساء الأقارب بالنسبة لك كلهن محرمات إلا هؤلاء الأربع: بنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة.

أما المحرمات بالرضاع فهن نظير المحرمات بالنسب، فكل امرأة حرمت عليك من جهة النسب حرم نظيرها من الرضاع، فأمك من النسب حرام وأمك من الرضاع حرام، وأختك من النسب حرام وأختك من الرضاع حرام وهكذا.

وأما المحرمات للصهر فهن أم الزوجة وبنتها وزوجة الابن وزوجة الأب، هؤلاء محرمات بالصهر، وضابطها: أنه يحرم على كل واحد من الزوجين خاصة أصوله وفروعه، فيحرم على الزوجة أصول الزوج، وأصول الزوج: أبوه، وفروعه

ابنه، ويحرم على الزوج أصول الزوجة وهي أمها وفروعها وهي بنتها، لكن يشترط في تحريم البنت الدخول بالأم.

⌘ ⌑ ⌘

وروى مسعر عن محمد بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا من النجوم ما تعرفون به القبلة والطريق.

وكان النخعي لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به، ورخص في تعلم منازل القمر أحمد وإسحق، نقله عنهما حرب، وزاد إسحاق: ويتعلم من أسماء النجوم ما يهتدي به. وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينه فيه، ذكره حرب عنهما، وقال طاوس: رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد؛ ليس له عند الله خلاق. خرجه حرب، وخرجه حميد بن زنجويه من رواية طاوس عن ابن عباس، وهذا محمول على علم التأثيرات لا علم التسيير؛ فإن علم التأثير باطل محرم، وفيه ورد الحديث المرفوع: «ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر»، خرجه أبو داود من حديث ابن عباس مرفوعًا.

التعليق:

قوله صلى الله عليه وسلم: «من اقتبس شعبة من النجوم» الاقتباس: أخذ الشيء، يعني تعلم علم النجوم، «ومن اقتبس شعبة» يعني قطعة وطائفة، «من النجوم» يعني من علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية، فيستدل مثلًا بولادة إنسان في نجم معين أنه سيكون شقيًا أو سعيدًا وعلى طبائعه، فيقول: إذا ولد

الإنسان في النجم الفلان أو في النوء الفلاني سيكون كذا وكذا، وإذا ولد في النجم الفلاني فسيكون كذا وكذا، هذا مراد: «فقد اقتبس شعبة من السحر» يعلم أي: تعلم وأخذ شعبة من السحر، والمراد بالسحر هنا ما هو أعم من السحر المعروف، أي: أنه إذا فعل ذلك فقد فَعَل فِعْل الساحر، وليس المراد أن له حكم الساحر من كل وجه.

ووجه كونه من السحر: أنه يستدل بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها على المغيبات، فيستدل بأمور خفية يعني بكون فلان ولد في النجم الفلاني على أمور من أمور الغيب: أنه سيكون سعيدًا أو شقيًا وستكون طبائعه كذا وكذا، هذا المراد بقوله: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر».

وذكر المؤلف رحمه الله يقول: **وهذا محمول على علم التأثير لا علم التسيير**، وذلك أن تعلم النجوم نوعان: علم التأثير وعلم التسيير.

وأما الأول وهو علم التأثير فهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يعتقد أن هذه النجوم فاعلة ومؤثرة بنفسها، وأنها تخلق الحوادث والشرور فهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأنه ادعى أن مع الله خالقًا ومدبرًا، فالذي يعتقد أن هذه النجوم تفعل وتؤثر بنفسها، وأنها تخلق الحوادث وتخلق الشرور فهذا كفر مخرج من الملة؛ لأنه اعتقد أن مع الله مبرًا وخالقًا.

القسم الثاني: أن يجعل هذه النجوم سببًا يدعي به علم الغيب؛ فيستدل بها على المغيبات والحوادث الأرضية في المستقبل، فينظر مثلًا في النجم ويقول: سيحصل كذا وسيحصل كذا، فهذا قد اتخذ علم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم

الغيب كفر مخرج من الملة؛ قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ} [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يعتقد أنها سبب لحصول الخير والشر، فإذا وقع خير أو شر نسبه إلى النجم، لكنه لا ينسبه إلى النجم إلا بعد وقوعه فهذا شرك أصغر.

وأما النوع الثاني من أنواع علم النجوم فهو: علم التسيير، وهذا ينقسم إلى قسمين؛

القسم الأول: أن يستدل بالنجوم وبسيرها على المصالح الدينية، كالاستدلال بالنجوم على جهة القبلة، وأوقات الصلاة فهذا مطلوب شرعًا، بل قد يكون واجبًا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ووجه ذلك: أنه يعين على مصلحة دينية واجبة، فكون الإنسان مثلًا: يتعلم علم النجوم ليهتدي بها إلى جهة القبلة، أو ليستدل بها على أوقات الصلاة، فمعلوم أن استقبال القبلة شرط، ودخول الوقت شرط.

القسم الثاني: أن يستدل بسيرها وبتعلمها على المصالح الدنيوية، وهذا يقع على وجهين:

الوجه الأول: أن يستدل بسيرها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالًا، والجدي قريب منه وما أشبه ذلك، فهذا جائز لعموم قول الله عز وجل: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: ١٦].

الوجه الثاني: أن يستدل بسيرها على الفصول وهو ما يعرف بمنازل القمر،

فهذا فيه خلاف بين السلف، والصحيح جوازه، فكونه يتعلم التسيير لأجل أن يعرف منازل القمر وما هي الأزمنة التي يكون فيها المطر؟ وما هي الأزمنة التي يكون فيها البرد؟ ونحو ذلك، الصحيح في هذا جوازه.

⌘ ⌑ ⌘

وهذا محمول على علم التأثيرات لا علم التسيير؛ فإن علم التأثير باطل محرم.

التعليق:

لأنه بجميع أقسامه منهي عنه، إذا اعتقد أنها فاعلة هذا شرك، وإذا اعتقد أنها سببًا لادعاء علم الغيب فهذا كفر أيضًا، والثالث: أن يجعلها سببًا لحصول الخير والشر فهذا فسق.

⌘ ⌑ ⌘

وفيه ورد الحديث المرفوع: «ومن اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر» خرجه أبو داود من حديث ابن عباس مرفوعًا، وخرج أيضًا من حديث قَبيصة مرفوعًا.

وخرج أيضًا من حديث قَبيصة مرفوعًا: «العيافة والطِيَرة والطرق من الجبت»، والعيافة: زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض.

التعليق:

قوله صلى الله عليه وسلم: «العيافة والطِيَرة والطرق من الجبت» العيافة مصدر عاف يعيف عيفًا وعيافة، وهي الزجر والحجز والطرق، وهي زجر الطير للتفاؤل أو

التشاؤم بأسمائها وأصواتها وممرها، وهذا كان معروفًا في الجاهلية، فمثلًا: إذا رأى عقابًا تفاءل بأن من كان عدوًا له سيعاقب، وإذا رأى غرابًا تفاءل بأن من كان عدوًا له سيغترب، وهكذا، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم عنها: إنها من الجبت، ووجه كونها من الجبت: أنه يستند في هذا غلى أمر لا حقيقة له وليس مستندًا إلى سبب شرعي أو سبب حسي.

كذلك أيضًا الطيرة يعني التطير بمرئي أو مسموع أو غيرها، فيتطير بأسماء الطيور أو الألفاظ أو البقاع أو الأشخاص هذا أيضًا من الجبت.

والثالث: الطرق وهو الضرب بالحصى ومنه سميت المطرقة، يقول: **الطرق: الخط في الأرض**، حيث كانوا يخطون خطوطًا يستدلون بها على أمور الغيب، هذا الطرق يضع خطوطًا على صفة معينة يستدل بها على ما يكون في المستقبل، والطرق أكثر من كان يستعمله النساء، قال: **والعيافة: زجر الطير، والطرق: الخط في الأرض**، ولهذا قال لَبيد بن رَبيعة:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ** ولا زاجرات الطير ما الله صانعه

الطوارق بالحصى يعني النساء اللاتي يطرقن بالحصى:

ولا زاجرات الطير ما الله صانعه

لأن العلم عند الله تعالى.

⌘ ⌑ ⌘

فعلم تأثير النجوم باطل محرم، والعمل بمقتضاه كالتقرب إلى النجوم وتقريب القرابين لها كفر.

وأما علم التسيير فإذا تعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق كان جائزًا عند الجمهور، وما زاد عليه فلا حاجة إليه، وهو يشغل عما هو أهم منه، وربما أدى التدقيق فيه إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين في أمصارهم، كما وقع ذلك كثيرًا من أهل هذا العلم قديمًا وحديثًا، وذلك يفضي إلى اعتقاد خطأ الصحابة والتابعين في صلاتهم في كثير من الأمصار، وهو باطل.

التعليق:

يقول يؤدي التدقيق إلى إساءة الظن بمحاريب المسلمين، فإذا رأى هذا المحراب قال: هذا متجه إلى غير القبلة، أو منحرف عن القبلة جهة اليمين أو جهة الشمال، مع أن الصلاة إلى هذه الجهة حتى مع انحرافها قليلًا صحيحة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».



وقد أنكر الأمام أحمد الاستدلال بالجدي، وقال: إنما ورد «ما بين المشرق والمغرب قبلة»، يعني لم يرد اعتبار الجدي ونحوه من النجوم، وقد أنكر ابن مسعود على كعب قوله: إن الفلك تدور، وأنكر ذلك مالك وغيره، وأنكر الإمام أحمد على المنجمين قولهم: إن الزوال يختلف في البلدان، وقد يكون إنكارهم أو إنكار بعضهم لذلك؛ لأن الرسل لم تتكلم في هذا، وإن كان أهله يقطعون به، وإن كان الاشتغال به ربما أدى إلى فساد عريض.

التعليق:

جعل الإمام أحمد رحمه الله أن الزوال في الدنيا واحد، وليس مراده أن وقت

الزوال في الدنيا يكون واحدًا؛ لأن هذا الواقع يشهد بخلافه، فالزوال في المشرق ليس كالزوال في المغرب، وإنما معنى: الزوال في الدنيا واحد، يعني أن الشمس تزول في آن واحد، فمثلًا إذا كانت الشمس عمودية نقول: بعد ذلك يحصل الزوال، فقوله: الزوال في الدنيا واحد، يعني باعتبار سير الشمس، فمثلًا إذا كانت الشمس كما هو معلوم تطلع من جهة المشرق ثم ترتفع وترتفع حتى تكون متعامدة ثم بعد ذلك يأتي الزوال، فهو في الدنيا واحد، يعني أن ما يحصل في هذا البلد يحصل في البلد الآخر، وليس مراده: أن الزوال في الدنيا واحد يعني أن زمن الزوال واحد، بل يختلف هذا باختلاف البلدان، فقد يكون في هذا البلد زوال وفي البلد الآخر ليل أو بالعكس.



وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان؛ فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين.

التعليق:

وهذا في الواقع من الأسئلة التي لا تنبغي ومن التنطع، وذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخر**» لم يسأل الصحابة رضي الله عنهم هل إذا نزل في هذا الموضع يخلو منه ذلك الموضع أو لا؟ فيجب أن نعتقد أنه متى كان ثلث الليل فإن الله عز وجل ينزل، إذا كان ثلث الليل في الصين ينزل، وإذا كان ثلث الليل في المغرب ينزل؛ فعلينا أن نؤمن ونسلم،

ولا نقول: كيف؟ أو ندخل الأمور العقلية.

ولذلك الإمام أحمد رحمه الله لما ذكر حديث رمضان: «**إذا جاء رمضان صفدت الشياطين**»، فقال له ابنه عبدالله: يا أبتاه إنا نرى المجنون، إنا نرى الإنسان يصرع في رمضان فقال: يا بني أمسك عن هذا أو كف عن هذا! هكذا جاء الحديث! ولكن المراد: أن الشياطين تصفد، المراد: المردة، ولذلك في رواية أخرى: «**صفدت مردة الشياطين**» وليس المعنى أن الشيطان لا يتسلط في رمضان، بل الشيطان يتسلط في رمضان وفي غير رمضان، لكن تسلطه في رمضان دون تسلطه في غيره؛ نظرًا لكثرة الخير في هذا الشهر، ولذلك تجد أن شهر رمضان يكثر فيه الخير ويقل فيه الشر، وهذا أمر واقع مشاهد وليس المعنى «**صفدت الشياطين**» أن الشياطين لا تتسلط على بني آدم في رمضان؛ لأن الواقع يخالف ذلك بل تتسلط، لكن تسلطها على بني آدم في رمضان دون تسلطها في غيره.



وقد اعترض بعض من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر، وقال: ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان؛ فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين.

ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أو خلفاءه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين.

وكذلك التوسع في علم الأنساب هو مما لا يحتاج إليه، وقد سبق عن عمر وغيره النهي عنه، مع أن طائفة من الصحابة والتابعين كانوا يعرفونه ويعتنون به.

التعليق:

وهذا النهي عن التوسع في علم النجوم، والتوسع في علم الأنساب، والتوسع في علم العربية، يعني بالنسبة لطالب العلم فيأخذ من هذه العلوم ما يحتاج إليها، أما بالنسبة لمن أراد أن يتخصص في هذا الفن يتخصص في علم الفلك، أو يتخصص في علم الأنساب، أو يتخصص في علم العربية فلا بأس في التوسع، فما جاء في النهي عن التوسع بالنسبة للعالم وطالب العلم؛ لأنها تشغله عن غيرها.

فمثلًا: طالب العلم إذا توسع في علم الأنساب يشغله هذا العلم ربما أشغله عن غيره من العلوم النافعة، وكذلك لو توسع في علم العربية ربما أشغله هذا عن غيره من العلوم النافعة، فما جاء من نهي السلف عن التوسع في هذه العلوم المراد بذلك هو بالنسبة لطالب العلم.

أما بالنسبة لغير طالب العلم فمطلوب للإنسان أن يتوسع في مسألة النجوم، وأن يعرف أن معرفة النجوم وأسرار هذا الكون مما يزيد إيمانه، بل يكون سببًا لإسلام كثير من الكفار، ولهذا قال الله عز وجل: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ} [فصلت: ٥٣] فكم من شخص من علماء الكفر ممن كانوا يعتنون بهذا العلم أسلموا بسبب ما رأوه من آيات الله عز وجل في الآفاق، وما رأوه من آيات الله عز وجل في أنفسهم؛ فلا تظن أن هذا العلم مذموم على سبيل الإطلاق، بل علم العربية وعلم

النسب وعلم النجوم من الأمور المطلوبة إذا تمشى الإنسان فيها على ما جاء به الشرع.



وكذلك التوسع في علم العربية لغة ونحوًا هو مما يشغل عن العلم الأهم، والوقوف معه يحرم علمًا نافعًا، وقد كره القاسم بن مخيمرة علم النحو وقال: أوله شغل وآخره بغي، وأراد به: التوسع فيه.

التعليق:

يقول: **أوله شغل وآخره بغي**، والمراد: التوسع في ذلك، وإلا فعلم العربية علم النحو والبلاغة طالب العلم بحاجة إليه، ولا بد منه وهو بحاجة إليه، أولًا: في تقويم لسانه، وثانيًا: في فهم معاني كلام الله عز وجل وما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فينبغي لطالب العلم أن يعتني بعلم العربية، ولا يكون كالذي عجز عن تعلم النحو فذمه، يقال أن أحد العلماء عجز عن علم النحو فقال:

لا بارك الله في النحو وأهله ** إذ كان منسوبًا إلى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه ** وجعل الباقي وبالًا عليه

يقول: لا بارك الله في النحو وفي أهله؛ إذ كان منسوبًا إلى نفطويه، أحرقه الله بنصف اسمه: نفط، وجعل الباقي: ويه، وجعل الباقي وبالًا عليه.

ونقول: هذه حيلة العاجز، ولذلك ينبغي للإنسان أن لا ييأس، فقد يتعلم علم النحو ولا يحصله، لكن لا ييأس يكرر ويكرر، ولذلك ذكر شيخنا عن شيخه عبدالرحمن السعدي: أن الكسائي وهو إمام أهل الكوفة في النحو أراد أن يتعلم علم

العربية علم النحو فتعلم وعجز، يقول: فبينما هو مستظل تحت شجرة إذ رأى نملة تحاول الصعود فتسقط ثم تحاول الصعود فتسقط ثم تحاول الصعود فتسقط، كررت هذا عدة مرات، وفي المرة الخامسة أو السادسة تمكنت من الصعود؛ فقال في نفسه: أنا درست علم النحو ولم أفلح فيه فتركته في مرة واحدة، وهذه النملة ماذا صنعت؟ لم تيأس، يقول: فعزم على طلب علم النحو فطلبه فكان إمامًا فيه.

والإنسان إذا طلب علمًا ولم يفتح له فيه أول مرة لا ييأس بل يكرر يعيد الكرة، فقد يكون في المرة الثانية يفتح الله عز وجل عليه ما لم يفتحه عليه في المرة الأولى، فعلى الإنسان أن يحرص على مثل هذا.

يقول: **أوله شغل وآخره بغي** وأراد التوسع فيه، **ولذلك كره أحمد التوسع في معرفة اللغة وغريبها، وأنكر على أبي عبيدة توسعه في ذلك.**



ولذلك كره أحمد التوسع في معرفة اللغة وغريبها، وأنكر على أبي عُبيدة توسعه في ذلك، وقال: هو يشغل عما هو أهم منه.

التعليق:

وهذا يدل على أن من لم يشغله عما هو أهم منه أنه لا بأس، فطالب العلم مثلًا: إذا أخذ من علم النحو ومن علم الصرف ومن علم غريب اللغة ما يحتاج إليه؛ فالتوسع في ذلك يشغله عن غيره، وأما من كان هذا شأنه من علماء اللغة أو من علماء غريب اللغة ولا يشغله عن غيره؛ لأن هذا هو شغله وهذا هو عمله، فيفرق.

فيفرق بين الإنسان المتخصص والإنسان غير المتخصص، فمثلًا: طالب العلم يحتاج إلى علم الحساب بل هو في ضرورة إلى علم الحساب؛ لأنه لا يمكن أن يتعلم علم الفقه إلا بمعرفة الحساب فعلم المواريث قائم على الحساب، والقسمة في باب القضاء قائمة على علم الحساب، والعِدة وهي الاعتداد في العدد والشهور والأقراء وغيرها قائمة على علم الحساب، كذلك أيضًا دخول وقت الصلاة وخروجها قائم على علم الحساب؛ فلا بد أن يتعلم علم الحساب، أما ما زاد على ذلك يعني كونه يعرف الجبر والمقابلة وما يتعلق بالهندسة فنقول: طالب العلم تشغله هذه الأمور عما هو أهم، أما بالنسبة لغيره فهو أمر مطلوب.



وهذا يقال: إن العربية في الكلام كالملح في الطعام، يعني أنه يؤخذ منها ما يصلح الكلام كما يؤخذ من الملح ما يصلح الطعام، وما زاد على ذلك فإنه يفسده.

وكذلك علم الحساب يحتاج منه إلى ما يعرف به حساب ما ينتفع به من قسمة الفرائض والوصايا، والأموال التي تقسم بين المستحقين لها، والزائد على ذلك مما لا ينتفع به إلا في مجرد رياضة الأذهان وصقالها لا حاجة إليه، ويشغل عما هو أهم منه.

وأما ما أحدث بعد الصحابة من العلوم التي توسع فيها أهلها وسموها علومًا، وظنوا أن من لم يكن عالمًا بها فهو جاهل أو ضال؛ فكلها بدعة، وهي من محدثات الأمور المنهي عنها.

التعليق:

والمراد بذلك: علم المنطق وعلم الكلام، مراده رحمه الله في ذلك: علم الكلام

وعلم المنطق الذي جعله أهل البدع والأهواء جعلوه مستندًا لهم وقاعدة لهم في إثبات ما يستحقه الله عز وجل من الأسماء والصفات، فعن طريقه حكموا العقل وقالوا: ما اقتضى العقل إثباته أثبتناه وما اقتضى العقل نفيه نفيناه، وهذا من العلوم المحدثة وعلم المنطق قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتوى الحموية: لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد. فالذكي لا يحتاج إليه والبليد لا ينتفع منه.

وأما تعلمه فللعلماء فيه كلام وأقوال: فمنهم من قال: إنه محرم، ومنهم من قال: إنه جائز، ومنهم من قال: إنه قد يكون واجبًا، وهذا هو القول الراجح: أن تعلمه مباح من حيث الأصل، بل قد يكون واجبًا إذا كان في تعلمه رد على أهل الفتنة والأهواء؛ لأن الذي يقرأ في كتب أهل البدع والأهواء يجد فيها شيئًا من المصطلحات المنطقية التي لا يمكن أن يرد عليهم إلا بعد معرفة هذه المصطلحات.

ولذلك تجد مثلًا في كلام شيخ الإسلام رحمه الله في كتابه (نقض المنطق – الرد على المنطقيين) أنه يذكر هذه المصطلحات ويرد عليهم، فالذي يريد أن يتعلم هذا العلم من أجل أن يرد على أهل البدع –ولا سيما ما يتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته– لا بد له من معرفة هذه المصطلحات، وهذا العلم نقول: إنه من الأمور الواجبة، أما من لا يريد ذلك فالواقع أنه ليس فيه تلك الفائدة كما قال الشيخ رحمه الله، وشيخ الإسلام قال: لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد.



فمن ذلك: ما أحدثته المعتزلة من الكلام في القدر وضرب الأمثال لله، وقد ورد

النهي عن الخوض في القدر، وفي صحيحي ابن حبان والحاكم عن ابن عباس مرفوعًا: «لا يزال أمر هذه الأمة موافيًا ومقاربًا ما لم يتكلموا في الولدان والقدر».

التعليق:

فمن ذلك: ما أحدثته المعتزلة وغير المعتزلة من الكلام في القدر، القدر هو تقدير الله عز وجل للكائنات حسبما سبق في علمه واقتضته حكمته، هذا هو القدر، وإذا قال قائل: ما الفرق بين القضاء والقدر؟

قيل: إنهما بمعنى واحد، وقيل: إن بينهما فرق؛ فالقضاء ما يقضيه الله عز وجل في هذا الكون من إيجاد أو إعدام أو تغيير هذا القضاء، والقدر: ما قدره الله عز وجل في الأزل أن يكون، وعلى هذا يكون القدر سابق عن القضاء؛ لأن الله عز وجل قدر ثم قضى.

وقوله رحمه الله: وقد ورد النهي عن الخوض في القدر، لأن الخوض في ذلك والتعمق في ذلك سبب لإنكاره، وذلك لأن القدر أحسن ما قيل فيه: أن القدر هو قدرة الله، حقيقة القدر أنه قدرة الله؛ ولهذا لما قال الإمام أحمد فهذا القول منسوب إلى الإمام أحمد: أنه سئل عن القدر؟ قال: القدر قدرة الله عز وجل، واستحسن هذا القول ابن عقيل الحنبلي رحمه الله وقال: هذا قول حسن من جوامع الكلم، أن يقال: إن القدر هو قدرة الله عز وجل، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ** في شأنه هو قدرة الرحمان

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ** لما حكاه عن الرضا الرباني

قال الإمام شفى القلوب بلفظة ** ذات اختصار وهي ذات بيان

يقول:

فحقيقة القدر الذي حار الورى ** في شأنه هو قدرة الرحمان

الإمام أحمد يقول: القدر قدرة الله.

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ** لما حكاه عن الرضا الرباني

قال الإمام شفى القلوب بلفظة

واللفظة هي: قدرة الرحمن

قال الإمام شفى القلوب بلفظة ** ذات اختصار وهي ذات بيان

وهذا من فضل علم السلف على علم الخلف، فمن فضل علم السلف على علم الخلف: أنهم يتكلمون بالكلام اليسير الذي يحمل معاني كثيرة، فتجد كلام السلف دائمًا مختصر، فهم لا يحبون الاستطراد والإطالة، فتجد أنهم يتكلمون بالكلام المختصر المفيد، بخلاف الخلف فتجد أن الواحد منهم يتكلم صفحات متعددة بل ربما ألف صفحات لو أردت أن تلخصها ربما في كلمتين والباقي كله حشو، أما السلف فإذا أردت أن تتأمل في كلامهم فكل لفظة من هذه الألفاظ تجد أن لها معنى لها مغزى ولها حكمة، وهذا من فضل علم السلف على علم الخلف: أنهم مع قلة كلامهم أن كلامهم يحمل معاني غزيرة كثير.

وقوله: «ما لم يتكلموا في الولدان» الولدان المراد بهم: أطفال المشركين وقد اختلف العلماء فيهم على أقوال متعددة منهم، من قال: إنهم في الجنة، ومنهم من قال:

إنهم تبعًا لآبائهم، وأصح هذه الأقوال أنهم يمتحنون يوم القيامة، أن الله عز وجل يمتحنهم يوم القيامة الله أعلم بهذا الامتحان.

وكذلك أيضًا الكلام في أهل الفترة: ما قبل النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الناس خاضوا في ذلك أيضًا، وهذا الخوض الذي لا يعلم، وجاءت أحاديث أنهم قالوا: «الله أعلم بما كانوا عاملين» فشأنهم عند الله ويمتحنهم الله عز وجل.

المهم أن المراد بالولدان يعني أطفال المشركين، ما مصيرهم؟ وما شأنهم؟ الناس خاضوا في هذا وليس هناك دليل بين، لكن أقرب الأقوال ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله وغيره: أنهم يمتحنون يوم القيامة، الله عز وجل يمتحنهم يوم القيامة والله أعلم بهذا الامتحان، خلافًا لمن قال مثلًا: إنهم يكونون تبعًا لأباءهم أو على ديانة أباءهم.



وخرج البيهقي من حديث ابن مسعود مرفوعًا: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا»، وقد روي من وجوه متعددة في أسانيدها مقال، وروي عن ابن عباس أنه قال لميمون بن مهران.

التعليق:

«إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا» الحديث ضعيف، لكن على تقدير صحته: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» عن الخوض فيما جرى بينهم، وأما أنه إذا ذكر الصحابة أن يتكلم الإنسان في سيرهم وفي فضائلهم وفي الثناء عليهم

هذا من الأمور المحمودة المطلوبة، لكن أن يتكلم فيما جرى بينهم وما حصل بينهم من قتال أو غيره فهذا هو الذي يجب الإمساك عنه.

⌘ ⌑ ⌘

وروي عن ابن عباس أنه قال لميمون بن مهران: إياك والنظر في النجوم؛ فإنها تدعو إلى الكهانة، وإياك القدر؛ فإنه يدعو إلى الزندقة، وإياك وشتم أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فَيُكِبَّكَ اللهُ في النار على وجهك. وخرجه أبو نعيم مرفوعًا ولا يصح رفعه.

التعليق:

وإياك أي: احذر، **وشتم أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فَيُكِبَّكَ اللهُ في النار على وجهك** ولذلك تتمة للفائدة نقول: إن سب الصحابة رضي الله عنهم على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن يسبهم بما يقتضي كفرهم، كأن يقول مثلًا: إن أبا بكر كافر، وإن عمر كافر، أو أن يسبهم بما يكون سببًا للكفر كرميه لعائشة رضي الله عنها بما برأها الله عز وجل منه ونحو ذلك؛ فهذا كفر مخرج من الملة، إذا سبهم بما يقتضي كفرهم، أو أن أكثرهم كفر أو ارتد عن الإسلام، أو نحو ذلك، أو وصم عائشة رضي الله عنها ووصفها بما برأها الله عز وجل منه فهذا كفر مخرج من الملة؛ لأنه تكذيب لله عز وجل ولرسوله ولإجماع المسلمين، فإن الله عز وجل قال عن الصحابة رضي الله عنهم: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ

اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة: ١٠٠] وقال في مبايعتهم تحت الشجرة: {لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} [الفتح: ١٨].

القسم الثاني: أن يسبهم بما يقتضي فسقهم، أي: بأنهم فسقة والعياذ بالله، فهذا قد اختلف العلماء رحمهم الله في كفره، منهم من قال: إنه يكفر، ومنهم من قال: إنه يفسق.

القسم الثالث: أن يسبهم بما لا يتعلق بالدين، بما لا يقدح في دينهم كالجبن والبخل ونحو ذلك، فهذا أيضًا من الأمور المحرمة ولا يجوز؛ لأن وصف أحد من الناس بالجبن والبخل ونحو ذلك من الصفات السيئة التي لا تتعلق بدينه قد تفضي إلى كراهته، وهذا فسق، والواجب على الإمام أن يعزره بما يردعه؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم شأنهم عظيم وقدرهم كبير يجب علينا: أن نحترمهم، ويجب علينا أن نعظمهم ونجلهم ونقدرهم حق القدر؛ فلا نغلو ولا نجفو، وإنما نحب الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، وشاهدوا التنزيل، وقاموا بنصرة رسول الله عليه الصلاة والسلام ونصرة الشريعة، وهم الذين أوصلوا لنا هذه الشريعة بيضاء نقية، فإن الذي أوصل لنا القرآن والسنة هم الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا قال ابن القيم رحمه الله في الميمية:

أولئك أصحاب النبي وحزبه ** ولولاهم ما كان في الأرض مسلم
ولولاهم كادت تميد بأهلها ** ولكن رواسيها وأوتادها هم

فهم الذين فتحوا البلدان، وهم الذين نشروا العلم الشرعي؛ فحقهم علينا: أن

نترضى عنهم ونترحم عليهم، وأن نكف عما شجر بينهم، ونعتقد أن ما حصل بينهم هو اجتهاد، كلٌّ مجتهد هذا اجتهد وهذا اجتهد، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحاكم : «إذا أجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

ولا ينبغي لطالب العلم -وهذا من العلوم التي لا تنبغي- أن ينظر ويقرأ فيها؛ لأنه قد توجب للإنسان الميل إلى أحد الطائفتين أو الطرفين، وربما وقع في قلبه شيء على أحد الصحابة، فالجهل في هذه الأمور خير من العلم بها.

وقد مر بي كلام للشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله هذا معناه، يقول: ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من وقعة الجمل وصفين وغيرها ما الجهل به خير من العلم، فكونك تجهله خير من أن تعلمه، والذي لم يقرأ نقول: الأحسن أن لا تقرأ؛ لأن الإنسان إذا قرأ لا بد أن يتأثر ويكون في قلبه شيء على فلان وفلان من الصحابة، كيف فعل هذا؟ وكيف عمل هذا؟ مع أنهم متأولون ومعذورون ومجتهدون، فالكف عن هذا وعدم القراءة والجهل به خير للإنسان من العلم؛ فإن الإنسان ولا بد إذا قرأ قصة فيها خصام بين شخصين تجد أن قلبه يميل إلى أحدهما للفظ قرأه ونحوه، فكونك تجهل خير من كونك تعلم.



والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه؛ منها: ضرب كتاب اللهَ بعضه ببعض، فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى، ويقع التجادل في ذلك، وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم

غضب من ذلك ونهى عنه، وهذا من جملة الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نهي عن ذلك.

ومنها: الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قدر وقضى ثم عذب كان ظالمًا، وقول من خالفهم: إن اللهَ جبر العباد على أفعالهم ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سر القدر. وقد ورد النهي عنه عن علي وغيره من السلف، فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك.

ومن ذلك أعني محدثات الأمور: ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام في ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول، وهو أشد خطرًا من الكلام في القدر؛ لأن الكلام في القدر كلام في أفعاله، وهذا كلام في ذاته وصفاته.

التعليق:

بحيث أنهم يحكمون العقل فيما يثبت وينفى عن الله، فيقولون: هذه الصفة العقل يقتضي إثباتها نثبتها، وهذه الصفة العقل يقتضي نفيها ننفيها، فيجعلون الميزان والمرجع في إثبات الصفات ونفيها إلى عقولهم، وليتها عقول صافية بل عقول فاسدة، فالواجب فيما يتعلق بالأسماء والصفات: أن نقف على ما جاء في القرآن والسنة، نثبت لله عز وجل، فما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، هذا هو ما جاء عن السلف رحمهم الله.

⌘ ⌑ ⌘

وانقسم هؤلاء إلى قسمين؛ أحدهما: من نفى كثيرًا مما ورد به الكتاب والسنة من ذلك؛ لاستلزامه عنده للتشبيه بالمخلوقين، كقول المعتزلة: لو رؤي لكان جسمًا؛ لأنه لا يرى إلا في جهة، وقولهم: لو كان له كلام يسمع؛ لكان جسمًا، ووافقهم من نفى الاستواء فنفوه لهذه الشبهة.

التعليق:

وهذه الألفاظ: الجسم والجهة، لم ترد عن السلف رحمهم الله، يعني لم يرد بها النص لا إثباتًا ولا نفيًا، وإنما جاءت في كلام المتكلمين، ومذهب أهل السنة والجماعة فيها: أنها لا تثبت لله عز وجل على سبيل الإطلاق ولا تنفى على سبيل الإطلاق؛ فلا نقول: إنه في جهة، ولا نقول: إنه ليس في جهة، بل يستفصل في ذلك، فإن أريد بالجهة مثلًا: أنه تحيط به الأشياء؛ فهذا ينفى عن الله عز وجل، وإذا أريد: أنه في جهة يعني في جهة العلو؛ فهذا ثابت لله عز وجل.

كذلك الجسم إن أريد به: جسم مركب يحتاج بعضه إلى بعض؛ هذا أيضًا ينفى عن الله، وهكذا يقال في جميعها: الحيز والجهة والجسم، كلها نقول فيها مثل هذا: لا نثبتها مطلقًا ولا ننفيها مطلقًا، فاللفظ لا نثبته والمعنى نستفصل فيه، إن أريد به حق أثبت، وإن أريد به باطل نفي.



وهذا طريق المعتزلة والجهمية، وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم، وقد سلك سبيلهم في بعض الأمور كثير ممن انتسب إلى السنة والحديث من المتأخرين.

والثاني: من رام إثبات ذلك بأدلة العقول التي لم يرد بها الأثر، ورد على أولئك مقالتهم كما هي طريقة مقاتل بن سليمان ومن تابعه كنوح بن أبي مريم، وتابعهم طائفة من المحدثين قديمًا وحديثًا، وهو أيضًا مسلك الكرامية؛ فمنهم من أثبت لإثبات هذه الصفات الجسم إما لفظًا وإما معنًى، ومنهم من أثبت لله صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة وغير ذلك مما هي عنده لازم الصفات الثابتة.

وقد أنكر السلف على مقاتل قوله في رده على جهم بأدلة العقل، وبالغوا في الطعن عليه، ومنهم من استحل قتله، منهم مكي بن إبراهيم شيخ البخاري وغيره.

والصواب ما عليه السلف الصالح: من إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسير لها ولا تكييف ولا تمثيل، ولا يصح عن أحد منهم خلاف ذلك البتة خصوصًا الإمام أحمد.

التعليق:

وقوله: من غير تفسير لها، يعني من غير تأويل لها بما يخالف الظاهر، وإلا يجب أن نعتقد أن لها معنًى، فآيات الصفات نمرها من غير تكييف لا نكيفها، ومن غير تأويل يعني أننا نعمل بظاهر ما جاء به النص، هذا المراد.



خصوصًا الإمام أحمد، ولا خوض في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها، وإن كان بعض من كان قريبًا من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئًا من ذلك اتباعًا لطريقة مقاتل؛ فلا يقتدى به في ذلك، إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك ومالك

والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد واسحق وأبي عبيد ونحوهم.

التعليق:

ولا خوض في معانيها، ولا ضرب مثل من الأمثال لها، ولذلك مثلًا من الخطأ حقيقة بعض الدعاة حينما يتكلم يقول: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن» ويرفع أصبعين، فربما العامي الذي أمامه يتخيل ذلك، وأن الله عز وجل وحاشاه من ذلك له كمثل هذا، فليحذر، لأن العامي الذي أمامه يتخيل أن لله عز وجل كهذين الأصبعين، فيعتقد هذا الكلام، والواجب: أن يتكلم بالحديث وأن لا يمثل؛ لأنه وإن كان قصده التقريب نقول: هذا التقريب يوهم معنًى فاسدًا.



وكل هؤلاء لا يوجد في كلامهم شيء من جنس كلام المتكلمين، فضلًا عن كلام الفلاسفة، ولم يدخل ذلك في كلام من سلم من قدح وجرح، وقد قال أبو زرعة الرازي: كل من كان عنده علم فلم يصن علمه، واحتاج في نشره إلى شيء من الكلام فلستم منه.

ومن ذلك أعني محدثات العلوم: ما أحدثه فقهاء أهل الرأي من ضوابط وقواعد عقلية ورد فروع الفقه إليها، وسواء أخالفت السنن أم وافقتها طردًا لتلك القواعد المقررة.

التعليق:

ليس المراد بالضوابط والقواعد: الضوابط والقواعد المبنية على النصوص

الشرعية، هذه من الأمور المطلوب معرفتها؛ لأنها مما يسهل العلم، لكن القواعد والضوابط التي يراد بها مصادمة النصوص الشرعية، كقوله مثلًا: السلم أو كذا وكذا على خلاف القياس، يضعون أقيسة وضوابط فإذا وردت معاملة جاء الشرع بها يقول: هذه المعاملة على خلاف القياس، أو لا نقول بها؛ لأنها تخالف القاعدة مع ورود النص فيها، هذه هي القواعد والضوابط المذمومة.

إذًا الضوابط والقواعد المذمومة هي: القواعد والضوابط التي تكون سببًا لرد النصوص الشرعية، فتأتي معاملة جاءت بها الشرع يقول: هذه المعاملة نردها؛ لأنها مخالفة للقواعد، والواجب: أن يكون الشرع هو الحاكم لا أن القواعد هي الحاكمة، فالشرع هو الحاكم والمهيمن على كل شيء، لذلك من الخطأ أن نقول مثلًا: الناس يفعلون هذا أو الناس يقرون هذا، فعل الناس ليس حجة، بل الحجة في الشرع.



وسواء أخالفت السنن أم وافقتها طردًا لتلك القواعد المقررة، وإن كان أصلها مما تأولوه على نصوص الكتاب والسنة لكن بتأويلات يخالفهم غيرهم فيها، وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام على من أنكروه من فقهاء أهل الرأي بالحجاز والعراق، وبالغوا في ذمه وإنكاره.

فأما الأئمة وفقهاء أهل الحديث: فإنهم يتبعون الحديث الصحيح، حيث كان إذا كان معمولًا به عند الصحابة ومن بعدهم أو عند طائفة منهم، فأما ما اتفق على تركه فلا يجوز العمل به؛ لأنهم ما تركوه إلا على علم أنه لا يعمل به، قال عمر بن

عبد العزيز: خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم؛ فإنهم كانوا أعلم منكم.

فأما ما خالف عمل أهل المدينة من الحديث: فهذا كان مالك يرى الأخذ بعمل أهل المدينة، والأكثرون أخذوا بالحديث.

التعليق:

ومن العبارات المشهورة عند أهل الكلام فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته قولهم: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم. هذه عبارة مشهورة، **وهذه عبارة باطلة؛ لأن من لازم كونها أسلم: أن تكون أعلم وأحكم، فليتنبه لهذا.**

فقد تجد في بعض كتب العقائد لما يتكلمون عن السلف والخلف يقولون: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف -يعني من جاء بعدهم من القرون المفضلة- أعلم وأحكم. فجعلوا أنفسهم أعلم من القرون المفضلة وأحكم منهم! وهذا الكلام باطل!

ووجه بطلانه: أن من لازم كون الطريق أسلم أن يكون أعلم وأحكم، فالإنسان الذي يسلك الطريق الذي فيه السلامة يلزم من ذلك أن يكون أعلم وأحكم من غيره الذي يسلك طريقًا فيه مخاطرة.



ومما أنكره أئمة السلف: الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام أيضًا، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام وإنما أحدث ذلك بعدهم، كما أحدثه فقهاء العراقين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية، وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا

البحث والجدال فيها، وكل ذلك محدث لا أصل له، وصار ذلك علمهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع.

وقد أنكر ذلك السلف، وورد في الحديث المرفوع في السنن: «ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} [الزخرف: ٥٨]»، وقال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل أغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرًا أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل.

التعليق:

ولا سيما في زمننا، فقد كثر الخوض والقيل والقال بين طلبة العلم، والخير للعبد ولطالب العلم: أن يشغل نفسه بالعلم، وأن يشتغل بالعلم، وأن يدع عنه القيل والقال؛ لأنه لن يسلم من الوقوع في المحظور والمحرم، الإنسان يجب عليه أن يبين الحق ويرد الباطل، لكن ليس معنى ذلك: أن يشغل وقته وزمنه في القيل والقال، وفي الخوض في أعراض الناس وفي الكلام فيهم، هذا ليس من شأن أهل العلم، ومن تدبر سير العلماء وجد ذلك.

وإذا كنت تشتغل بالعلم فلا يمنعك هذا عن أن تقول الحق وترد الباطل، لكن أن تجعل هذا ديدن حياتك وزمانك الاشتغال بمثل هذا والانصراف عن العلم الشرعي، هذا في الواقع خطأ.

وأنا أقولها: ما سلك إنسان هذا الطريق وأفلح في العلم إطلاقًا، فلم يسلك

إنسان هذا المسلك وهذا المنهج: أن يشغل وقته وجهده في الكلام في أعراض الناس، وفي الكلام في أعراض العلماء وفي سوء الظن فيهم من غير بينة ولا برهان؛ إلا انصرف عن العلم الشرعي ولم يفلح.

وأنا لا أقول: الإنسان يرضى بالباطل، بل على الإنسان أن يشتغل بالعلم الشرعي ويقول الحق ويرد الباطل، لكن لا تجعل ديدنك وجل وقتك وزمنك هو الانشغال بمثل هذه الأمور، اشتغل بالعلم والزم العلم، ولا يمنع هذا أن تقول الحق وأن ترد الباطل، فإن الخوض في مثل هذا من الجدل المذموم لا سيما في وقتنا الحاضر مع كثرة الفتن والمتغيرات.



وقال مالك: أدركت أهل هذه البلدة وإنهم ليكرهون هذا الإكثار الذي فيه الناس اليوم؛ يريد المسائل، وكان يعيب كثرة الكلام والفتيا ويقول: يتكلم أحدهم كأنه جمل مغتلم يقول: هو كذا هو كذا يهدر في كلامه، وكان يكره الجواب في كثرة المسائل، ويقول: قال اللهُ عز وجل: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥] فلم يأته في ذلك جواب، وقيل له: الرجل يكون عالمًا بالسنن يجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة فإن قبل منه وإلا سكت، وقال: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم، وقال: المراء في العلم يُقسي القلب ويورث الضغن، وكان يقول في المسائل التي يسئل عنها كثيرًا: لا أدري، وكان الإمام أحمد يسلك سبيله في ذلك.

وقد ورد النهي: عن كثرة المسائل، وعن أغلوطات المسائل، وعن المسائل قبل وقوع الحوادث، وفي ذلك ما يطول ذكره، ومع هذا ففي كلام السلف والأئمة كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق: التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب.

التعليق:

تأمَّل وتنبَّه: التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب؛ تجد أنهم يتكلمون كلامًا قليلًا، ولكن هذا الكلام يحتوي على معان كثيرة، بخلاف بعض المتأخرين يتكلم بكلام طويل يعني تقرأ صفحتين أو ثلاث أو أربع ربما لا تفهم شيئًا، أو إذا أردت أن تستخرج خلاصة لهذا الكلام في كلمتين، تقول: المؤلف مثلًا في هذه الصفحات الأربع يريد كذا وكذا، لكن في السلف تجد أن كل كلمة من كلماتهم تحمل معنًى ومغزًى.



ومع هذا ففي كلام السلف والأئمة كمالك والشافعي وأحمد وإسحاق: التنبيه على مأخذ الفقه ومدارك الأحكام بكلام وجيز مختصر يفهم به المقصود من غير إطالة ولا إسهاب، وفي كلامهم من رد الأقوال المخالفة للسنة بألطف إشارة وأحسن عبارة بحيث يغني ذلك من فهمه عن إطالة المتكلمين في ذلك بعدهم، بل ربما لم يتضمن تطويل كلام من بعدهم من الصواب في ذلك ما تضمنه كلام السلف والأئمة مع اختصاره وإيجازه؛ فما سكت من سكت من كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة

جهلًا ولا عجزًا، ولكن سكتوا عن علم وخشية لله، وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم لاختصاصه بعلم دونهم، ولكن حبًا للكلام وقلة ورع، كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون: هؤلاء قوم ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم؛ فتكلموا.

وقال مهدي بن ميمون سمعت محمد بن سيرين وماراه رجل ففطن له فقال: إني أعلم ما يريد، إني لو أردت أن أماريك كنت عالمًا بأبواب المراء، وفي رواية قال: أنا أعلم بالمراء منك ولكني لا أماريك، وقال إبراهيم النخعي: ما خاصمت قط، وقال عبد الكريم الجزري: ما خاصم ورع قط، وقال جعفر بن محمد: إياكم والخصومات في الدين؛ فإنها تشغل القلب وتورث النفاق.

التعليق:

وهو من العلم الذي لا ينفع كما تقدم، ولها آثار منها:

أولًا: إشغال الوقت.

ثانيًا: إشغال القلب.

ثالثًا: قسوة القلب، وكما قال: **تورث النفاق.**



وكان عمر بن عبد العزيز يقول: إذا سمعت المراء فأقصر، وقال: من جعل دينه عرضًا للخصومات أكثر التنقل، وقال: إن السابقين عن علم وقفوا، وببصر ناقد كفوا، وكانوا هم أقوى على البحث لو بحثوا. وكلام السلف في هذا المعنى كثير جدًا.

وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا؛ فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض، وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا؟ كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم؛ فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

التعليق:

هذا كلام عليه نور، يقول: **فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال**، يعني كون الإنسان يحفظ متونًا ومنظومات هذا ليس علمًا، **ولا بكثرة المقال** يعني ما يعطيه الله عز وجل من فصاحة اللسان وبلاغته، **ولكنه نور يقذف في القلب** يقذفه الله عز وجل في قلبه فيجعل في كلامه نورًا، بحيث أنه إذا تكلم قبل الناس بكلامه وأخذوا بقوله، وساروا على منهجه وهديه، يميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

وتحصيل ذلك يكون بالإخلاص لله عز وجل، إذا أخلص العبد لله تعالى في طلبه للعلم وعلم الله عز وجل منه حسن النية وسلامة الطوية؛ حينئذ يرزقه الله عز وجل علمًا ويفتح له من أبواب العلم ما لا يخطر له على البال، هذا من توفيق الله، فإذا

وفق الله عز وجل العبد إلى الإخلاص لله عز وجل وحسن النية وسلامة الطوية وحسن الظن بإخوانه المسلمين يفتح الله له عز وجل من أبواب العلم ما لا يخطر له على البال، يقول ابن القيم رحمه الله:

والعلم يدخل قلب كل موفق ** من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من خذلانه ** لا تشقنا اللهم بالحرمان

فالموفق الذي وفقه الله عز وجل يدخل العلم إلى قلبه، فتجد أنه حتى دخول العلم فإن الله عز وجل يسهل عليه تحصيله، ويسهل عليه أيضًا ثباته، والمحروم من فقد الإخلاص لله عز وجل، أو علم الله تعالى منه أنه أراد طلب العلم رياء وسمعة أو للجدال أو للشهرة: «من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يريد إلا أن ينال به غرضًا من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنة» يعني ريحها كما سيأتي في كلام المؤلف.

فهذه العبارة الحقيقة تكتب بماء الذهب: **ليس العلم بكثرة الرواية**، فالعلم ليس بالكثرة، كم من إنسان عنده علم غزير كثير ولكن الناس لم ينتفعوا به، وإنسان عنده دون ذلك ونفع الله عز وجل بعلمه وبارك، فالعلم إذا بارك الله عز وجل للإنسان فيما آتاه الله من العلم فالبركة من الله تجعل القليل كثيرًا، فليست العبرة بكثرة المحفوظات، إنسان يحفظ المتن الفلاني ويحفظ منظومات بآلاف الأبيات ويحفظ منثورات كذلك ويحفظ أشعارًا ويعرف في علم الأنساب وفي علم الرجال، ولكن لم يبارك الله عز وجل في علمه، فلا ينتفع الناس بعلمه، وإنسان دون ذلك ولكن نشر الله عز وجل علمه وانتفع الناس بقوله، إذا قال قولًا أنصت الناس له ومالوا إليه

وأخذوا به.

وهذا من أكثر أسباب حصوله للإنسان: الإخلاص لله، أن يخلص لله.

وأيضًا: سلامة الصدر، بأن يكون الإنسان سليم القلب، فلا يحقد على إخوانه المسلمين، ولا يحمل في قلبه شيئًا، ولهذا جاء عن السلف: أن الصحابة رضي الله عنهم ما سبقوا من سبقوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا عبادة ولكن ما وقر في قلوبهم؛ فالإنسان عليه أن يحرص على طهارة قلبه، فيطهر قلبه؛ أولًا: مما ينافي الإخلاص من الشرك في عبادة الله، وثانيًا: يطهر قلبه فيما يتعلق بعباد الله من الحقد والحسد والشحناء والبغضاء، وعلى نياتكم ترزقون، فمتى علم الله منك حسن النية وحسن القصد؛ رزقك الله من حيث لا تحتسب، وسيأتي إن شاء الله تعالى في كلام المؤلف.

⁂

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارًا، ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام والتوسع في القيل والقال، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن اللهَ لم يبعث نبيًا إلا مبلغًا، وإن تشقيق الكلام من الشيطان»، يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتكلم بما يحصل به البلاغ، وأما كثرة القول وتشقيق الكلام فإنه مذموم.

التعليق:

يقول رحمه الله: **وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم**، كما قال عليه الصلاة والسلام في عده لخصائصه: «**وأوتيت جوامع الكلم**»، ومعنى جوامع

الكلم: أنه يتكلم بالكلام اليسير الذي يحمل معاني كثيرة، يتكلم بالكلام القليل اليسير الذي يحمل معاني كثيرة، تأمل مثلًا قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»، كم حوى من القواعد والضوابط والأصول وفروع المسائل؟ مع أنه: «**إنما الأعمال بالنيات**»، «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» وهلم جرا.

فمن خصائصه عليه الصلاة والسلام : أن الله عز وجل آتاه جوامع الكلم، ومعنى جوامع الكلم: أنه يتكلم بالكلام القليل الذي يحمل ويشتمل على معانٍ كثيرة، بخلاف المتأخرين: الذين يتكلمون بالكلام الكثير الذي يحمل معاني قليلة في الغالب، ولا نعمم، فمن المتأخرين من سلك طريق السلف في كلامه وفي عباراته، فتجد أنه يتكلم بكلام موجزٍ أيضًا يحمل معاني كثيرة.

⌘ ⌑ ⌘

وكانت خطب النبي صلى الله عليه وسلم قصدًا.

التعليق:

كانت خطبه صلى الله عليه وسلم قصدًا، ولهذا قال: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ** -يعني علامة- **مِن فِقهه**»، وأمر عليه الصلاة والسلام بإطالة الصلاة وتقصير الخطبة، وذلك؛ لأن الخطبة إذا طالت فإن آخرها ينسي أولها، فعلى هذا السنة ألا يطيل الخطيب الخطبة، وأن يقتصر فيها على جوامع الكلم.

⌘ ⌑ ⌘

وكان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه، وقال: «إن من البيان سحرًا»، وإنما قاله في ذم ذلك لا مدحًا له كما ظن ذلك من ظنه، ومن تأمل سياق ألفاظ الحديث قطع بذلك.

التعليق:

والصحيح أن هذا الكلام: «**إن من البيان سحرًا**» بيان للواقع ليس مدحًا ولا قدحًا، فمن البيان سحر: نقول هذا بيان للواقع؛ فقد يكون مدحًا إذا كان البيان يراد به: إحقاق الحق وإبطال الباطل، وقد يكون قدحًا: إذا كان البيان يراد به عكس ذلك، أن يحق الباطل ويبطل الحق، فقوله رحمه الله: **وإنما قاله في ذم ذلك**، هذا لا يسلم بل يقال: إن قوله: «**إن من البيان سحرًا**» نقول: هذا بيان للواقع، يعني كأنه يقول: إن من الناس من يعطى بيانًا كأنه سحر، ما حكمه؟ نقول: إن أرد بهذا البيان حقًا فهو محمود، وإن أراد بهذا البيان ذمًا فهو مذموم.



وفي الترمذي وغيره عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «إن اللهَ ليبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها».

التعليق:

ومعنى: «**يتخلل**» يعني يتكلم ويتشدق في كلامه؛ لأن هذا من التكلف، وقد نُهينا عن التكلف.



وفي المعنى أحاديث كثيرة مرفوعة، وموقوفة على عمر وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم من الصحابة؛ فيجب أن يعتقد: أنه ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك.

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين: أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص: أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، وهذا يلزم منه ما قبله؛ لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولًا ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله؛ كان أعلم ممن كان أقل منهم قولًا بطريق الأولى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممن قبلهم من التابعين والصحابة أيضًا، فإن هؤلاء كلهم أقل كلامًا ممن جاء بعدهم، وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح، وإساءة ظن بهم، ونسبة لهم إلى الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه في قوله في الصحابة: إنهم أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها علومًا، وأقلها تكلفًا، وروي نحوه عن ابن عمر أيضًا، وفي هذا إشارة إلى أن من بعدهم أقل علومًا وأكثر تكلفًا.

وقال ابن مسعود أيضًا: إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه.

التعليق:

ويروى عنه أيضًا: كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم. يكثر مثلًا من

يقرأون ولا سيما القرآن يحسنون قراءة القرآن ولكن لا يفقهون شيئًا، قال: كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم. لأن الفقيه حقيقة هو الذي يعلم ويعمل، وأما الذي يعلم ولا يعمل فهو قارئ، وهذا مراد ابن مسعود في قوله: كيف بكم إذا كثر قراؤكم. يعني كثر من يتعلم العلم ويعرف العلم ولكن لا يعمل به؛ لأن العلم إنما يتعلم للعمل به.



فمن كثر علمه وقل قوله فهو الممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم.

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن بالإيمان والفقه، وأهل اليمن أقل الناس كلامًا وتوسعًا في العلوم، لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك، وهذا هو الفقه والعلم النافع، فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام: ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم الذين سميناهم فيما سبق.

التعليق:

وذلك لأن التفسير، تفسير القرآن: أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن لم تجد في القرآن فيفسر بالسنة، فإن لم تجد في السنة فمما جاء عن الصحابة؛ لأنهم شاهدوا التنزيل، وهم أعلم بمراد النبي عليه الصلاة والسلام وبما جاء عنه من غيرهم، ولسلامة قلوبهم، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنهم أبر الأمة قلوبًا، وأعمقها

علومًا، وأقلها تكلفًا.

⌘ ⌑ ⌘

فضبط ما روي عنه في ذلك: أفضل العلوم مع تفهمه وتعقله والتفقه فيه، وما حدث بعدهم من التوسع لا خير في كثير منه إلا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق من كلامهم، وأما ما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة، فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدى إليه من بعدهم ولا يلم به.

التعليق:

وهذا قد يكون على سبيل النص، وقد يكون على سبيل الإشارة والإيماء، يعني كل ما يوجد في كلام من بعدهم من الحق قد يجده الإنسان في كلامهم نصًا، وقد لا يجده نصًا ولكن يجده إشارة أو إيماء، ولهذا كل ما تحتاج الأمة إليه في معاشهم ومعادهم فهو موجود في القرآن إما نصًا وإما إيماء وإشارة.

ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه **(الرسالة)**: فليست تنزل بأحد من المسلمين نازلة إلا وفي كتاب الله عز وجل سبيل الهدى فيها. لا يمكن يوجد نازلة إلا وفي القرآن سبيل الهدى في هذه النازلة، إما عن طريق النص أو الإشارة أو الإيماء، ولكن هذا لا يعرفه ولا يميزه إلا من آتاه الله عز وجل علمًا وفهمًا لكتاب الله عز

وجل؛ فإن الناس يختلفون.

ولذلك لما قيل لعلي رضي الله عنه: هل ترك لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء؟ قال: لا، إلا فهمًا يؤتيه الله عز وجل من شاء من عباده وما في هذه الصحيفة، قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.



فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله، مع ما يقع في كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم، ويحتاج من أراد جمع كلامهم إلى معرفة صحيحة من سقيمه، وذلك بمعرفة الجرح والتعديل والعلل؛ فمن لم يعرف ذلك فهو غير واثق بما ينقله من ذلك، ويلتبس عليه حقه بباطله، ولا يثق بما عنده من ذلك، كما يرى من قل علمه بذلك لا يثق بما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف؛ لجهله بصحيحه من سقيمه، فهو لجهله يُجَوِّز أن يكون كله باطلًا لعدم معرفته بما يعرف به صحيح ذلك وسقيمه.

قال الأوزاعي: العلم ما جاء به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فما كان غير ذلك فليس بعلم. وكذا قال الإمام أحمد، وقال في التابعين: أنت مخير. يعنى مخيرًا في كتابته وتركه.

التعليق:

وذلك لأن كلام التابعين لا يحتج به، الحجة في ما جاء في القرآن وفي السنة وعن الصحابة رضي الله عنهم، أما كلام التابعين فيستأنس به لكنه ليس حجة؛ لأن

الحجة في الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»، وقال: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»، أما التابعون فكلامهم أقرب إلى الصواب من غيرهم، لكنه ليس بحجة.



وقد كان الزُهري يكتب ذلك، وخالفه صالح بن كيسان ثم ندم على تركه كلام التابعين.

وفي زماننا يتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد، وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم؛ فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة، وحدث من انتسب إلى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم، وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الأئمة وانفراده عنهم بفهم يفهمه، أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمة من قبله.

التعليق:

لأن الناس هنا بين طرفي نقيض: مَن أخذ بظواهر النصوص فقط وجعل النصوص مجرد ألفاظ ليست لها معانٍ، ومنهم من أخذ بالمعاني وترك ظاهر اللفظ، فمثلًا: غالب مذهب أهل الرأي يعتمدون على الآراء والعقول والمعاني، وأهل الظاهر يأخذون بظاهر اللفظ من غير نظر إلى المعنى، ولذلك أنكروا القياس، وقالوا: إن القياس ليس حجة وليس دليلًا شرعيًا.

والواجب على الإنسان أن يعمل بالأمرين، بظاهر اللفظ ويأخذ أيضًا بالمعنى؛ لأن الألفاظ الشرعية ألفاظ ومعان، لأننا لو قلنا: إنها مجرد ألفاظ؛ صارت لغوًا من الكلام ليس فيه فائدة، فهي لفظ جاء لمعنى.



فأما الدخول مع ذلك في كلام المتكلمين أو الفلاسفة فشر محض، وقل من دخل في شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم، كما قال أحمد: لا يخلو من نظر في الكلام من أن يتجهم. وكان هو وغيره من أئمة السلف يحذرون من أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة، وأما ما يوجد في كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لا يتوسع في الخصومات والجدال، ونسبته إلى الجهل، أو إلى الحشو، أو إلى أنه غير عارف بالله، أو غير عارف بدينه؛ فكل ذلك من خطوات الشيطان نعوذ بالله منه.

ومما أحدث من العلوم: الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره، وكان أبو سليمان يقول: إنه لتَمُرُّ بي النكتةُ من نُكَتِ القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة.

التعليق:

المراد بالنكتة هنا: الفائدة والمسألة، وليس المراد بالنكتة ما يُضحك.



وقال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة؛ من لم يقرأ القرآن ويكتب

الحديث لا يقتدى به في علمنا هذا.

وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء اللهَ أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم، وإلى التنقص بما جاءت به الرسل من الشرائع، وإلى دعوى الحلول والاتحاد، أو القول بوحدة الوجود، وغير ذلك من أصول الكفر والفسوق والعصيان كدعوى الإباحة، وحل محظورات الشرائع، وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا: أنه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا: أنه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها.

التعليق:

وهذا موجود حتى في عصرنا، بعض الناس يقول: إن الغناء يرفه عن النفس، ويكون سببًا لرقة القلوب وما أشبه ذلك، وهذا في الواقع كلام باطل، كيف تسوي بين كلام الرحمن ومزمار الشيطان؟! ولهذا قيل:

حب القرآن وحب ألحان الغنا ** في قلب عبد ليس يجتمعان

لا يجتمع حب القرآن وحب ألحان الغناء.

⌘ ⌑ ⌘

وبعضها زعموا: أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة.

التعليق:

قد ذكر الفقهاء رحمهم الله ضابطًا في لباس الشهرة قالوا: لباس الشهرة ما يشار إليه بالأصابع، يعني يقول: انظر، وقد يكون شهرة إما بجنس اللباس وإما بلونه وإما

بطريقة لبسه:

فبجنسه: أن يلبس لباسًا ليس من عادة قومه، يعني مثلًا: قومه يلبسون القمص والعمامة فيأتي ويلبس لباسًا مخالفًا لهم، هذا شهرة؛ لأنهم يقولون: فلان الذي يلبس اللباس الفلاني.

وقد يكون شهرة في لونه، يلبس لباسًا من جنس لباسهم لكن يخالفهم في اللون يعني يشذ، يلبس مثلًا ثوبًا لونه برتقالي، يقول: هذا فلان صاحب الثوب البرتقالي، صاحب الثوب الأخضر، ونحو ذلك.

وقد يكون شهرة في طريقة لبسه، يعني مثلًا: الإنسان لو لبس هذا اللباس وجعل الأزرار من الخلف؛ فهذا شهرة، ولهذا جاء في الحديث: «من لبس لباس شهرة ألبسه الله لباس مذلة»، فلباس الشهرة محرم.

فائدة: بعض من ينتسب إلى الصوفية يدعون العبادات والصلوات، ويقول: لأن الشيخ يتحمل عني، أو أن بعضهم أيضًا يرى أنه قد وصل إلى مرتبة ومرحلة تسقط عنه التكاليف، وكل هذا باطل.

والصوفية التي جاء مدحها من قبل السلف هي المتقدمة، الصوفية بمعنى الانقطاع والتفرغ للعبادة على وفق ما جاء في الكتاب والسنة، وليست ما ظهر في الأزمنة المتأخرة من الغلو في الصالحين والابتداع في الدين ونحو ذلك، والمولد أيضًا من بدعهم وليست بدعة خاصة بهم، نقول: من بدعهم بدعة الاحتفال بمولد الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا لا أصل له:

أولًا: لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحتفل بمولده.

ثانيًا: لم يفعله الصحابة ولا التابعون وتابعوهم.

ثالثًا: أن حقيقة محبة الرسول عليه الصلاة والسلام هي اتباعه {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} [آل عمران: ٣١].

ودعوى أنهم لا يفعلون ذلك عبادة، فيقولون: نحن لا نتعبد لله، بل نحن نحب أن نظهر فقط محبتنا له، **ونقول لهم**: محبة الرسول أعظم عبادة: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

ثم أيضًا من الناحية التاريخية: لم يثبت قطعًا أن مولد الرسول عليه الصلاة والسلام كان في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، بل اختلف المؤرخون في ذلك، منهم من قال: إنه في اليوم السادس، وقيل: السابع، وقيل: الثامن، وقيل التاسع، وقيل: العاشر، وقيل: الحادي عشر، وقيل: الثاني عشر، فمن عين ليلة من هذه الليالي بعينها فعليه الدليل، وليس ثمة دليل.

⌘ ⌑ ⌘

وبعضه يصد عن ذكر اللهَ وعن الصلاة كالغناء والنظر إلى المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا.

فالعلم النافع من هذه العلوم كلها: ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق

والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل.

ومن وقف على هذا، وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه؛ أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه، وحينئذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به وهي خشية اللهَ، كما قال عز وجل: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، وقال ابن مسعود وغيره: كفى بخشية اللهَ علمًا، وكفى بالاغترار باللهَ جهلًا. وقال بعض السلف: ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية. وقال بعضهم: من خشي اللهَ فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل. وكلامهم في هذا المعنى كثير جدًا.

وسبب ذلك: أن هذا العلم النافع يدل على أمرين؛ أحدهما: على معرفة اللهَ وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضى بقضائه والصبر على بلائه، والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال؛ فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة اللهَ ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع.

التعليق:

يعني جمع بين المحبة والتعظيم، فبالحب يكون الطلب وبالتعظيم يكون الهرب، فالعلم النافع ما جمع بين أمرين: حب الله عز وجل وتعظيمه، وهما ركنا العبادة؛ لأن

بالحب يكون الطلب، فأنت في محبتك لله عز وجل تتعبد لله عز وجل، وبالتعظيم يكون الهرب يعني الخوف من عقابه ومعصيته.

⌘ ⌑ ⌘

فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذل هيبة وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيمًا، ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له؛ قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا.

وكل ما هو فان لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند اللهَ من نعيم الآخرة وإن كان كريمًا على اللهَ، كما قال ذلك ابن عمر وغيره من السلف، وروي مرفوعا، وأوجب ذلك أن يكون بين العبد وبين ربه عز وجل معرفة خاصة، فإن سأله أعطاه وإن دعاه أجابه، كما قال في الحديث الإلهي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» إلى قوله: «فلئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»، وفي رواية: « ولئن دعاني لأجيبنه».

التعليق:

وليس الشأن أن تحب الله، فكلنا نحب الله، بل الشأن: أن يحبك الله، ومحبة الله إنما تكون بطاعته، ومن ذلك: كثرة الأعمال الصالحة، ولهذا قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: **«وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»** من لازم ذلك قال: **«فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»**

بمعنى أن الله عز وجل يسدده في سمعه وبصره وبطشه وعمله؛ فلا يسمع إلا ما يرضي الله، ولا يبصر إلا ما يرضي الله، ولا يبطش إلا بما يرضي الله، ولا يعمل إلا بما يرضي الله، فيكون مسددًا في أقواله وأعماله وأفعاله.

⌘ ⌑ ⌘

وفي وصيته صلى اللهَ عليه وسلم لابن عباس: «احفظ اللهَ يحفظك، احفظ اللهَ تجده أمامك، تعرف إلى اللهَ في الرخاء يعرفك في الشدة».

التعليق:

قوله صلى الله عليه وسلم: «احفظ اللهَ يحفظك» يعني احفظ دينك، تمسك بدينه وبفرائضه يحفظك الله، وحفظ الله عز وجل للعبد يشمل أن يحفظه في أمر دينه وأن يحفظه في أمر دنياه، فيحفظه في أمر دينه من البدع المضلة والشهوات المحرمة، ويحفظه أيضًا في أمر دنياه من السوء والأمراض وغير ذلك.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «احفظ اللهَ تجده تجاهك» وفي رواية ذكرها: «تجده أمامك» يعني: أن من حفظ الله عز وجل وقام بحقوقه وحدوده وجد الله عز وجل تجاهه ينصره ويؤيده.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «تعرف إلى اللهَ في الرخاء يعرفك في الشدة» المراد بالمعرفة هنا: لازمها، يعني اعمل أعمالًا صالحة في حال الرخاء تكون ذخرًا لك عند الله عز وجل في حال الشدة، وليس المراد «تعرف إلى اللهَ في الرخاء يعرفك في الشدة»: أن يعرفك أنك إذا عملت عرفك وإذا لم تعمل لم يعرفك، لا الله عز وجل يعرفك

سواء عملت أو لم تعمل؛ {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ} [النجم: ٣٢] فالله عز وجل يعلمك ويعرفك سواء عملت أم لم تعمل، لكن المراد بالمعرفة هنا: لازمها.

ولذلك تتمة لذلك نقول: لا يجوز أن نصف الله تعالى بأنه عارف، فلا نقول: إن الله عارف؛ قال العلماء رحمهم الله: لأن المعرفة انكشاف بعد لُبْس، بمعنى أن الإنسان يكون جاهلًا ثم يتعلم، ولكن يوصف سبحانه وتعالى بالعلم ولهذا لا نقول: إن الله عز وجل عارف؛ لأن المعرفة يسبقها جهل، وعلمه سبحانه وتعالى لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان.

وهذا من فوائد الأعمال الصالحة، الآن ذكر المؤلف هنا في الحديث الأول فائدة، والحديث الثاني فائدة، يعني الاستكثار من الأعمال الصالحة أولًا: سبب لنيل محبة الله عز وجل، ثانيًا: أن الاستكثار من الأعمال الصالحة سبب لأن يفرج الله عز وجل همك وينفس كربك ويزيل شدتك.

وهناك فوائد أخرى منها:

- زيادة الإيمان؛ لأن الأعمال من الإيمان فالأعمال الصالحة سبب لزيادة الإيمان.

- أن الأعمال الصالحة سبب لتكفير السيئات؛ فالإكثار منها سبب لأن يكفر الله سيئاتك: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤].

- أن الإنسان إذا واظب على الأعمال الصالحة وحيل بينه وبينها بمرض أو

سفر؛ كتب الله له أجرها ولو كان نائمًا على فراشه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**».

- أن الأعمال الصالحة سبب لوقاية الإنسان من الفتن؛ فيقي الله عز وجل العبد من الفتن بكثرة عمله الصالح: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا**»، كل هذه بعض الفوائد للاستكثار من الأعمال الصالحة.

لذلك قلت وأكرر أيضًا: أن من الخطأ عند بعض الوعاظ والمذكرين أنهم حينما يعظون الناس ويذكرونهم لا يحثونهم على الأعمال الصالحة، وهذا خلل وتقصير، فلا يكفي أنك تعظ الناس وتذكرهم بيوم القيامة من غير أن تحثهم على العمل الصالح؛ لأنه لا فائدة من التذكر والاتعاظ بدون عمل لا فائدة، فما الفائدة أن هذا الرجل يبكي ولا يعمل لهذا قال الله عز وجل: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ} [الكهف: ١١٠]، فأنت إذا وعظت الناس الواجب أن تحثهم على العمل، تقول: احرصوا على الأعمال الصالحة، احرصوا على الاستكثار من ذكر الله ومن طاعته ومن الصيام والصلاة والصدقة وغير ذلك من الأعمال، وإلا فالموعظة والبكاء والاتعاظ من غير عمل لا يجدي شيئًا.



فالشأن في أن العبد يكون بينه وبين ربه معرفة خاصة بقلبه، بحيث يجده قريبًا منه يستأنس به في خلوته، ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وخدمته، ولا يجد ذلك

إلا من أطاعه في سره وعلانيته، كما قيل لوهيب بن الورد: يجد حلاوة الطاعة من عصى؟ قال: لا، ولا من هم.

التعليق:

يعنى: ولا من هم بالمعصية.

⌘ ⌑ ⌘

ومتى وجد العبد هذا فقد عرف ربه وصار بينه وبينه معرفة خاصة؛ فإذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه، كما قالت شعوانة لفضيل بن عياض لما سألها الدعاء: أما بينك وبين ربك ما إذا دعوته أجابك فغشي عليه والعبد لا يزال يقع في شدائد وكرب في الدنيا.

التعليق:

شعوانة هذه امرأة عابدة كانت تنزل الأُبُلَّة مدينة بالعراق بينها وبين البصرة أربعة فراسخ.

⌘ ⌑ ⌘

والعبد لا يزال يقع في شدائد وكرب في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الموقف، فإذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة ؛كفاه اللهَ ذلك كله. وهذا هو المشار إليه في وصية ابن عباس رضي الله عنه بقوله صلى الله عليه وسلم: «تعرف إلى اللهَ في الرخاء؛ يعرفك في الشدة».

التعليق:

وقد شرحنا هذا الحديث، الحديث السابق في روايته: «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل» و«تعرف إلى الله في الرخاء».

وقد شرحَ حديثَ ابن عباس: «**احفظ الله يحفظك**» الحافظُ ابنُ رجب في شرح الأربعين: (جامع العلوم والحكم)، وأخرجه في مصنف مستقل سماه: (نور الاقتباس في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس)، رسالة وليس مجلدًا ضخمًا، وخلاصته موجودة في شرحه: (جامع العلوم والحكم)، لكن في (نور الاقتباس) إضافات ونقولات لا توجد في (جامع العلوم والحكم).



وقيل لمعروف: ما الذي هيجك إلى الانقطاع، وذكر له الموت والقبر والموقف والجنة والنار، فقال: إن ملكا هذا كله بيده إذا كانت بينك وبينه معرفة؛ كفاك هذا كله. فالعلم النافع ما عرف بين العبد وربه، ودل عليه حتى عرف ربه ووحده وأنس به واستحى من قربه، وعبده كأنه يراه.

التعليق:

يعني هذه أحد مراتب الإحسان، «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» فذكر الرسول عليه الصلاة والسلام مرتبتين: أن تعبد الله كأنك تراه وهذه مرتبة الطلب، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذه مرتبة الهرب، والمرتبة الأولى أعظم من المرتبة الثانية.



ولهذا قالت طائفة من الصحابة: إن أول علم يرفع من الناس الخشوع. وقال ابن مسعود: إن أقوامًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب

فرسخ فيه نفع. وقال الحسن: العلم علمان؛ فعلم على اللسان فذلك حجة اللهَ على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع. وكان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم باللهَ عالم بأمر اللهَ، وعالم باللهَ ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر اللهَ ليس بعالم باللهَ. وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه.

فالشأن كله في أن العبد يستدل بالعلم على ربه فيعرفه، فإذا عرف ربه فقد وجده منه قريبًا، ومتى وجده منه قريبا قربه إليه وأجاب دعاءه، كما في الأثر الإسرائيلي: «ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء»، وكان ذو النون يردد هذه الأبيات بالليل.

اطلُبوا لِأَنفُسِكُم ** مِثلَ ما وَجَدتُ أَنا
قَد وَجَدتُ لِي سَكَنًا ** لَيسَ في هَواهُ عَنا
إِن بَعُدتُ قَرَّبَني ** أَو قَرُبتُ مِنهُ دَنا

وكان الإمام أحمد رحمه اللهَ يقول عن معروف: معه أصل العلم.. خشية اللهَ. فأصل العلم: العلم باللهَ الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه، ثم يتلوه العلم بأحكام اللهَ وما يحبه ويرضاه من العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقاد؛ فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع، والقلب الخاشع، والنفس القانعة، والدعاء المسموع.

التعليق:

وهذا يرجع إلى ما تقدم، قلنا: إن العلم النافع يورث خشية الله، ومتى أورث

خشية الله كما قال المؤلف رحمه الله: **ثم يتلوه العلم بأحكام اللهَ**، ثم العمل.

فضابط العلم النافع إذًا: هو الذي يورث خشية الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

⌘ ⌑ ⌘

ومن فاته هذا العلم النافع؛ وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي صلي الله عليه وسلم، وصار علمه وبالًا وحجة عليه فلم ينتفع به؛ لأنه لم يخشع قلبه لربه، ولم تشبع نفسه من الدنيا، بل ازداد عليها حرصًا ولها طلبًا، ولم يسمع دعاؤه؛ لعدم امتثاله لأوامر ربه، وعدم اجتنابه لما يسخطه ويكرهه.

هذا إن كان علمه علمًا يمكن الانتفاع به وهو المتلقى عن الكتاب والسنة، فإن كان متلقى من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه ولا يمكن الانتفاع به، بل ضره أكثر من نفعه، وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع: أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء، وطلب العلو والرفعة في الدنيا والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه.

التعليق:

الخلاصة: يريد بهذا العلم الدنيا من الفخر والخيلاء وطلب الرئاسة والمناصب وأن يحمد ويمدح عند الناس.

⌘ ⌑ ⌘

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم إن من طلب العلم لذلك فالنار النار.

وربما ادعى بعض أصحاب هذه العلوم: معرفة الله وطلبه والأعراض عما سواه، وليس غرضهم بذلك إلا طلب التقدم في قلوب الناس من الملوك وغيرهم

وإحسان ظنهم بهم وكثرة اتباعهم، والتعظم بذلك على الناس.

التعليق:

وهذا يدخل فيمن التمس رضى الناس بسخط الله، نسأل الله العافية!.



وعلامة ذلك: إظهار دعوى الولاية كما كان يدعيه أهل الكتاب، وكما ادعاه القرامطة والباطنية ونحوهم، وهذا بخلاف ما كان عليه السلف من احتقار نفوسهم وازدرائها باطنًا وظاهرًا، وقال عمر رضي الله عنه: من قال: إنه عالم؛ فهو جاهل، ومن قال: إنه مؤمن؛ فهو كافر، ومن قال: هو في الجنة؛ فهو في النار.

التعليق:

لأن هذا من تزكية النفس، وقد قال الله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].



ومن علامات ذلك: عدم قبول الحق والانقياد إليه، والتكبر على من يقول الحق خصوصًا إن كان دونهم في أعين الناس، والإصرار على الباطل خشية تفرق قلوب الناس عنهم بإظهار الرجوع إلى الحق، وربما أظهروا بألسنتهم ذم أنفسهم واحتقارها على رؤوس الأشهاد؛ ليعتقد الناس فيهم أنهم عند أنفسهم متواضعون فيمدحون بذلك، وهو من دقائق أبواب الرياء كما نبه عليه التابعون فمن بعدهم من العلماء، ويظهر منهم من قبول المدح واستجلابه مما ينافي الصدق والإخلاص؛ فإن الصادق

يخاف النفاق على نفسه، ويخشى على نفسه من سوء الخاتمة، فهو في شغل شاغل عن قبول المدح واستحسانه.

التعليق:

كون الإنسان يفرح بحمد الناس له وثناء الناس له ومدحهم له هذا دليل على خلل في الإخلاص، فحمد الناس ومدحهم لن ينفعك ولن يضرك، يعني: لا تجعل مدحهم وقدحهم يغير في سيرك ومسارك إلى الله عز وجل.

فاسلك الطريق المستقيم، والمنهج القويم ولا تبالي فيمن مدحك ذمًا وقدحًا، فكونك مثلًا إذا مدحك الناس تزداد، وإذا ذموك تقل، فهذا قدح في الإخلاص.

ومع الأسف يوجد الآن منتسبين إلى العلم تجده إذا مدح أو أثنى عليه شخص تجد أنه ينقل هذه العبارات التي يثنى عليه فيها، وهذا موجود، فتجد له حسابا في (تويتر) وغيره إذا أثنى عليه شخص يعيد تغريدة المادح بهذا المدح على حسابه، قال الشيخ فلان بن فلان وكذا.

ونقول: اجعل أفعالك هي التي تتحدث عنك لا بأقوالك، أفعالك هي التي تتحدث لا أقوالك، أما كون الناس يثنون عليك ثم أنت تنقل هذا الثناء وتفرح به فهذا قدح في إخلاص الإنسان.



فلهذا كان من علامات أهل العلم النافع: أنهم لا يرون لأنفسهم حالًا ولا مقامًا، ويكرهون بقلوبهم التزكية والمدح، ولا يتكبرون على أحد، قال الحسن: إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه المواظب على عبادة ربه. وفي

رواية عنه قال: الذي لا يحسد من فوقه، ولا يسخر ممن دونه، ولا يأخذ على علم علَّمَه اللهَ أجرًا. وهذا الكلام الأخير قد روي معناه عن ابن عمر من قوله، وأهل العلم النافع كلما ازدادوا في هذا العلم ازدادوا تواضعًا لله وخشية وانكسارًا وذلًا.

قال بعض السلف: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعًا لربه. فإنه كلما ازداد علمًا بربه ومعرفة به ازداد منه خشية ومحبة، وازداد له ذلًا وانكسارًا.

ومن علامات العلم النافع: أنه يدل صاحبه على الهرب من الدنيا، وأعظمها: الرئاسة والشهرة والمدح، فالتباعد عن ذلك والاجتهاد في مجانبته من علامات العلم النافع، فإذا وقع شيء من ذلك من غير قصد واختيار كان صاحبه في خوف شديد من عاقبته، بحيث أنه يخشى أن يكون مكرًا واستدراجًا، كما كان الإمام أحمد يخاف ذلك على نفسه عند اشتهار اسمه وبعد صيته.

ومن علامات العلم النافع: أن صاحبه لا يدعى العلم، ولا يفخر به على أحد، ولا ينسب غيره إلى الجهل إلا من خالف السنة وأهلها؛ فإنه يتكلم فيه غضبًا لله لا غضبًا لنفسه، ولا قصدًا لرفعتها على أحد.

وأما من علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلى الجهل وتَنَقُّصهم؛ ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقبح الخصال وأرداها، وربما نسب من كان قبله من العلماء إلى الجهل والغفلة والسهو؛ فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها إحسان ظنه بها وإساءة ظنه بمن سلف.

وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيؤون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن

سلف من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم، وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول إليها أو مقاربتها.

التعليق:

كذلك حيث يحملون كلام من سبقهم من العلم على أحسن المحامل، ولذلك قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كلمة جامعة: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك ظن سوء وأنت تجد لها في الخير محملًا. لا تقل: هو قال كذا لكذا، بل احمل كلامه على أحسن المحامل، اللهم إلا مع القرائن الظاهرة فهذا له شأن، لكن الشأن في الإنسان أنه يحسن الظن بإخوانه المسلمين، ولهذا قال فقهاؤنا رحمهم الله: إنه يحرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة. فالإنسان الذي ظاهره العدالة لا يجوز أن تسيء الظن به وقولهم ظاهره العدالة احترازًا ممن كان على خلاف ذلك، فالقرائن قرائن الأحوال لها شأن آخر.

فمثلًا: بعض الناس إذا كان بينه وبين شخص عداوة حمل كل كلام يصدر منه على محمل سيئ، فيقول قال كذا وهو يقصد كذا، حتى في نظراته وفي حركاته وفي سكناته، فكل ما يصدر منه يحمله على أسوء المحامل، وهذا خطأ بلا شك.



وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيؤون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بمن سلف من العلماء، ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل من سلف عليهم، وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول إليها أو مقاربتها، وما أحسن قول أبي حنيفة وقد سئل

عن علقمة والأسود: أيهما أفضل؟ فقال: واللهَ ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفضل بينهم؟. وكان ابن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تُعرِضن بِذِكرِنا مَع ذِكرِهِم ** لَيسَ الصَحيحُ إِذا مَشى كَالمُقعَدِ

ومن علمه غير نافع إذا رأى لنفسه فضلًا على من تقدمه في المقال وتشقق الكلام؛ ظن لنفسه عليهم فضلًا في العلوم أو الدرجة عند اللهَ، لفضل خص به عمن سبق؛ فاحتقر من تقدمه وازدرا عليه بقلة العلم، ولا يعلم المسكين أن قلة كلام من سلف إنما كان ورعًا وخشية لله، ولو أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك، كما قال ابن عباس لقوم سمعهم يتمارون في الدين: أما علمتم أن لله عبادًا أسكتهم خشية الله من غير عي ولا بكم، وإنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام اللهَ، غير أنهم إذا تذكروا عظمة اللهَ طاشت لذلك عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى اللهَ بالأعمال الزاكية، يعدون أنفسهم من المفرطين وأنهم لأكياس أقوياء، مع الظالمين والخاطئين وأنهم لأبرار برآء، إلا أنهم لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، هم حيث ما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون. خرجه أبو نعيم وغيره.

وخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي إمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحياء والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» وحسنه الترمذي، وخرجه الحاكم وصححه.

التعليق:

المراد بالعي السكوت حيث ينبغي أن يسكت، وأما السكوت عن الباطل أو عن بيان الحق فهذا مذموم، ولذلك ما روي في الحديث: «الصمت حكمة وقليل فاعله» نقول: هذا ليس على إطلاقه، أولًا: الحديث ضعيف، وثانيًا: أن الصمت ليس حكمة بل قد يكون مذمومًا، فالصمت إذا تضمن ترك بيان الحق أو ترك إبطال الباطل فهو مذموم، وأما إن عدم ذلك بحيث تساوى الكلام وغير الكلام فالصمت أولى؛ لأنه أسلم.



وخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «البيان من الله والعي من الشيطان، وليس البيان بكثرة الكلام، ولكن البيان: الفصل في الحق، وليس العي قلة الكلام ولكن من سفه الحق»، وفي مراسيل محمد بن كعب القرظي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث ينقص بهن العبد في الدنيا، ويزداد بهن في الآخرة ما هو أعظم من ذلك: الرحم والحياء وعي اللسان»، قال عون بن عبد اللهَ: ثلاث من الإيمان: الحياء والعفاف والعي، عي اللسان لا عي القلب ولا عي العمل، وهن مما يزدن في الآخرة وينقصن في الدنيا، وما يزدن في الآخرة أكبر مما ينقصن من الدنيا. وروي هذا مرفوعًا من وجه ضعيف.

وقال بعض السلف: إن كان الرجل ليجلس إلى القوم، فيرون أن به عيًا، وما به من عي؛ إنه لفقيه مسلم.

التعليق:

قوله: **إن كان الرجل ليجلس إلى القوم، فيرون أن به عيًا، وما به من عي؛ إنه لفقيه مسلم**، وهذا يفعله -وهو السكوت- فيما إذا كان في المجلس من هو أعلم منه، أو كان في السكوت خير، يعني هذا محمول على أحد أمرين:

- إما أن يكون في المجلس من هو أعلم منه، فيسكت لوجود من هو أعلم.
- وإما أن يرى أن السكوت هو السلامة بحيث يكون الناس مثلًا يخوضون في فتن وبكلام قد يجر إلى ما ينبغي فيسكت، يعني درءًا للفتنة وتركًا للخوض في مثل هذا.

وإلا فإن الإنسان ولا سيما طالب العلم إذا جلس عند القوم وعند الناس ينبغي أن ينفعهم، ينفعهم في كلامه ومما رزقه الله عز وجل إما مباشرة أو غير مباشرة، قد يكون من المناسب أن يتكلم مباشرة، وقد يكون من غير المناسب أن يتكلم مباشرة، ولذلك مثلًا لو أتيت إلى مناسبة وليمة زواج أو غيره فليس من المناسب أن تتحدث كأنك تخطب جمعة فتجلس وتقول: إن الحمد لله... فتعظ الناس؛ لأن الناس سيستثقلون ذلك؛ لكن الفطن اللبيب بإمكانه أن يتحدث معهم بطريق لا يصيبهم بالملل.

وكان شيخنا رحمه الله إذا دعي إلى مناسبة ونحوها مما لا يحسن أن يتكلم فيها ابتداءً كان يسلك مسلكين:

المسلك الأول: أن يوعز إلى أحد ممن كان معه يعني من أتى معه في السيارة ويقول له: إذا جلسنا اسألني عن كذا اسأل، فيقول مثلًا: أحسن الله إليك يا شيخ ما

حكم كذا؟ فيكون هذا السائل هو الذي فتح الباب لا أن الشيخ ابتدأ فيتقبل الناس، فقد يكون أمر انتشر وهو من الأمور التي يحتاج إلى بيان حكمه للناس، وهو يستثقل مثلًا أنه إذا جلس يقول: أيها الناس حكم المسألة الفلانية كذا وكذا، فقد لا يتقبل الناس ذلك، فيوعز لمن أتى معه فيسأله، فيقول: كيف هذا يا شيخ؟ هل يصح هذا هل يتصور هذا؟ ما حكم كذا؟ ينفتح السؤال ويتحول المجلس من قيل وقال إلى مجلس علم؛ لأن الناس حقيقة -لا سيما في المناسبات التي يكون فيها فرح وفيها سرور مثل مناسبات الأفراح والولائم وغيرها- يستثقلون أن يقوم شخص ويعظ الناس، ويقولون: أشغلنا هذا المطوع كأننا في مجلس عزاء وهو أتى بنا المسجد، فنحن أتينا نفرح وننبسط ونتحدث، لكن إذا جاء من طريق غير مباشر، فلو أنا جلست وجاء واحد وقال ما حكم كذا وكذا أجيبه لأنني لم أبتدئ.

فكان شيخنا رحمه الله لا يرى الكلام ابتداء في ذلك، لكنه إذا رأى من المصلحة أحيانًا يوعز لشخص يسأل لا سيما إذا كان هناك مثلًا مسألة اشتهرت وانتشرت وتحتاج إلى بيان، حينئذ يقول: اسألني عن كذا.

المسلك الثاني: أن يأتي بمسألة فيها نوع من الدعابة، يعني يأتي مثلًا بمعاياة لغز ولا سيما للصغار الموجودين إذا سلم عليه أحد الصغار مثلًا: كم تحفظ من القرآن كم كذا؟ سأله سؤال معاياة حتى يفتح الباب، فمثلًا يقول للناس مثلًا: رجل تشهد في صلات المغرب ست تشهدات كيف هذا؟ فيأتي بألغاز ثم ينفتح الباب للسؤال.

⌘ ⌑ ⌘

فمن عرف قدر السلف؛ عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام

وكثرة الجدال والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيًا ولا جهلًا ولا قصورًا، وإنما كان ورعًا وخشية لله، واشتغالًا عما لا ينفع بما ينفع. وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه، وفي تفسير القرآن والحديث، وفي الزهد والرقائق والحكم والمواعظ، وغير ذلك مما تكلموا فيه؛ فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى، ومن سلك غير سبيلهم ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال، فإن اعترف لهم بالفضل وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريبًا، وقد قال إياس بن معاوية: ما من أحد لا يعرف عيب نفسه إلا وهو أحمق، قيل له: فما عيبك؟ قال: كثرة الكلام. وإن ادعى لنفسه الفضل ولمن سبقه النقص والجهل؛ فقد ضل ضلالًا مبينًا وخسر خسرانًا عظيمًا.

وفي الجملة ففي هذه الأزمان الفاسدة: إما أن يرضى الإنسان لنفسه أن يكون عالمًا عند اللهَ، أو لا يرضى إلا بأن يكون عند أهل الزمان عالمًا، فإن رضي بالأول فليكتف بعلم اللهَ فيه، ومن كان بينه وبين اللهَ معرفة اكتفى بمعرفة اللهَ إياه، ومن لم يرض إلا بأن يكون عالمًا عند الناس دخل في قوله صلى الله عليه وسلم: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ فليتبوأ مقعده من النار».

التعليق:

ومن ذلك من يصرف وجوه الناس: أن يأتي بالآراء الشاذة التي يخالف بها ما كان عليه أهل العلم ممن سبقه؛ فلا ينبغي لطالب العلم ولا سيما في ابتداء طلبه العلم لا ينبغي أن يعرف بالشذوذ، بل على طالب العلم حين ابتدائه بعلمه وظهوره للناس أن يكون على منهج من سبقه حتى يرسخ في العلم وحتى يثق الناس فيه، وحينئذ إذا

وثق الناس فيه قبلوا منه، أما أن يظهر للناس بآراء شاذة تخالف من سبقه ويسفه من سبقه من العلماء فهذا في الواقع من علامات الحرمان، حينما تريد أن تظهر للناس وتنفع الناس لا يعرف الناس عنك الشذوذ، لا تبتدئ طلبك العلم بالشذوذ والخروج عن آراء العلماء، بل كن على ما كان عليه من قبلك حتى إذا رسخ علمك ووثق الناس فيك حينئذ تبدي رأيك الذي يدل عليه الكتاب والسنة.

ولذلك من تأمل سير العلماء وجد ذلك، شيخنا رحمه الله حينما بعد وفاة شيخه عبدالرحمن بن ناصر السعدي بدأ يظهر للناس، كان إذا أراد أن يرجح قولًا أو يذكر قولًا حتى في خطبة الجمعة كان لا يعتمد على فهمه ورأيه فقط، وإنما تجد أنه يعضد قوله بأقوال العلماء المعتبرين عند الناس، فتجده يقول مثلًا: وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واختيار شيخنا أبي عبد الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فلا تجد أنه يقول: هذا حلال أو هذا حرام فقط أو هذا صواب وينسب لنفسه فقط، لأنه في ذلك الوقت لم يعرفه الناس ولم يثقوا به غاية الثقة، لكن بعد أن رسخ في العلم وتمكن وعرف الناس ما عنده من العلم صار يذكر القول من غير أن ينسبه لأحد، بل بعض العامة تقول هذا كلام الشيخ ابن عثيمين وهذا كلام الشيخ فلان، قال: لا أنا أريد كلام ابن عثيمين ولا أريد كلام فلان؛ لأنهم وثقوا فيه.

ولو اطلع أحد منكم على الخطب الجوامع لشيخنا رحمه الله من حين تولى إلى وفاته، تجد أن الخطب القديمة قصيرة، وتجد أنه إذا ذكر رأيًا فقهيًا تجد أنه يعضد قوله بقول شيخ الإسلام ابن القيم أو لشيخه الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ لأن الناس مثلًا في بلدنا على مذهب الحنابلة، فالأصل عندهم مذهب الحنابلة، فإذا خالف مذهب

الحنابلة قالوا: إن هذا خالف المذهب! أتى بدين جديد! فيعتبرونه شذوذًا ويعتبرونه خروجًا، لكن إذا عضد ذلك بقول غيره يقول مثلًا بالقول الفلاني وعضده بقول الشيخ عبدالرحمن السعدي؛ قالوا: نعم ما دام الشيخ عبدالرحمن السعدي يقول كذا انتهى الأمر، فليست هناك مشكلة، يعني: لا لأجلك ولكن لأجل السعدي مثلًا، لكن لما رسخ في العلم وتمكن في العلم وعرفه الناس وعرفوا ما عنده من العلم والفهم والديانة والأمانة وثقوا فيه.

وأعيد وأكرر: أنه لا ينبغي لطالب العلم أن يعرف في ابتدائه وابتداء ظهوره للناس بالشذوذ حتى يشتهر: خالف تذكر، لا ليكن على منهج العلماء وعلى ما مشى عليه العلماء، ولا سيما في المسائل التي يسوغ فيها الاجتهاد ويكون الدليل فيها محتملا لكلا القولين، ثم إذا رسخ في العلم وتمكن من العلم والناس عرفوه ووثقوا به وما عنده من العلم والفهم حينئذ له أن يبدي الرأي، لكن أن يضلل الناس ويبدع الناس ويسفه أقوال من سبقه من العلماء لرأي رآه هذا خطأ، وهو من علامات عدم التوفيق.



قال وهيب بن الورد: رب عالم يقول له الناس عالم، وهو معدود عند اللهَ من الجاهلين، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أول من تسعر بهم النار ثلاثة: أحدهم من قرأ القرآن وتعلم العلم ليقال: هو قارىء وهو عالم، ويقال له: قد قيل ذلك، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى ألقي في النار»، فإن لم تقنع نفسه بذلك حتى تصل إلى درجة الحكم بين الناس، حيث كان أهل الزمان لا

يعظمون من لم يكن كذلك ولا يلتفتون إليه؛ فقد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وانتقل من درجة العلماء إلى درجة الظلمة، ولهذا قال بعض السلف لما أريد على القضاء فأباه: إنما تعلمت العلم؛ لأحشر به مع الأنبياء لا مع الملوك. فإن العلماء يحشرون مع الأنبياء، والقضاة يحشرون مع الملوك.

ولا بد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به إلى راحة طويلة.

التعليق:

كما جاء في الحديث: «القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة».



ولا بد للمؤمن من صبر قليل حتى يصل به إلى راحة طويلة، فإن جزع ولم يصبر؛ فهو كما قال ابن المبارك: من صبر فما أقل ما يصبر، ومن جزع فما أقل ما يتمتع.

وكان الإمام الشافعي رحمه اللهَ ينشد:

يا نَفسُ ما هِيَ إِلّا صَبرُ أَيّامِ ** كَأَنَّ مُدَّتَها أَضغاثُ أَحلامِ

يا نَفسُ جوزي عَنِ الدُنيا مُبادِرَةً ** وَخَلِّ عَنها فَإِنَّ العَيشَ قُدّامي

التعليق:

تأمل ما مضى من عمرك كأنه أحلام نائم أو هيام أو خيال، يعني جميع عمرك من حين ولادتك إلى ساعتك الآن لو تأملته كأنه أحلام أو خيال، ربما لو تخيلتها كأنها في دقيقة تتخيل هذه الحياة التي مضت وهذا الزمن الذي مضى في خلال دقيقة؛ فاعتبر! فالأيام كما قيل: الأيام تمضي سريعًا وتنصرم جميعًا، وعمر الإنسان الحقيقي هو ما أمضاه في طاعة الله، وما سوى ذلك إما وبال عليك أو خسارة: وبال إن أضعته

في المعصية، وخسارة إن أضعته في اللهو واللعب.

فالإنسان إما أن يمضي وقته في طاعة الله، وإما أن يمضي وقته في معصية الله، وإما أن يمضي وقته فيما لا فائدة منه لا طاعة ولا معصية؛ فإن أمضاه في الطاعة هذا هو المغبون حقيقة، وإن أمضاه في المعصية فهذا هو المحروم الذي ظلم نفسه، وإن أمضاه فيما ليس فيه فائدة فهذا خسارة بأنه أضاع ساعات من عمره وزمنًا من عمره وسوف يسأل يوم القيامة، فإن الإنسان: «لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع»، ومنها: «عن عمره فيما أفناه» فهل أفنيت عمرك في طاعة الله؟ وليس المراد طاعة الله: أنه يكون راكعًا ساجدًا.

بل يجب أن نعلم أن معنى الطاعة والعبادة أوسع، فكل ما يقرب إلى الله فهو من طاعة الله، ولا تظن أن الطاعة والعبادة أن الإنسان يلزم مسجدًا ويتفرغ للصلاة والطاعة والاعتكاف، بل الطاعة كل ما قربك إلى الله فهو طاعة: صلة الرحم طاعة، وقيامك برزق أولادك طاعة، وقيامك بتعليم الناس وإرشادهم طاعة، وقيامك بواجبك الوظيفي طاعة، فالطاعة لا تختص بشيء، فلا يظن الإنسان أن الطاعة هي أن يصوم ويصلي ويعتكف ويقرأ القرآن، فالطاعة أعم من ذلك.

⌘ ⌑ ⌘

فنسأل اللهَ تعالى علمًا نافعًا، ونعوذ به من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع، اللهم إنّا نعوذ بك من هؤلاء الأربع، الحمد لله رب العالمين وصلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

⌘ ⌑ ⌘

فصل

ليتدبر ما ذم اللهَ به أهل الكتاب من قسوة القلوب بعد إيتائهم الكتاب، ومشاهدتهم الآيات كإحياء القتيل المضروب ببعض البقرة، ثم نهينا عن التشبه بهم في ذلك، فقيل لنا: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦]، وبين في موضع أخر سبب قسوة قلوبهم؛ فقال سبحانه: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} [المائدة: ١٣]، فأخبر أن قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق اللهَ، وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيه، وبعد أن أخذ عليهم مواثيق اللهَ وعهوده: أن لا يفعلوا ذلك، ثم قال تعالى: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣]، فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين؛ إحداهما: تحريف الكلم من بعد مواضعه.

التعليق:

والتحريف هنا يشمل التحريف اللفظي والتحريف المعنوي، أن يحرف الكلام لفظًا، وأن يحرفه معنًى:

فالتحريف اللفظي: كما لو قال: {كَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤] يقرأ

وكلم اللهَ موسى تكليما، فيجعل الكلام من موسى إلى الله بنفي صفة الكلام عن الله عز وجل.

والتحريف المعنوي: أن يصرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل مثل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥] أي: استولى، {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: ٢٢] أي: أمره ونحو ذلك، فهذا تحريف معنوي.



والثانية: نسيانهم حظًا مما ذكروا به، والمراد: تركهم وإهمالهم نصيبًا مما ذكروا به من الحكمة والموعظة الحسنة، فنسوا ذلك وتركوا العمل به وأهملوه.

وهذان الأمران موجودان في الذين فسدوا من علمائنا لمشابهتهم لأهل الكتاب؛ أحدهما: تحريف الكلم، فإن من تفقه لغير العمل يقسو قلبه؛ فلا يشتغل بالعمل بل بتحريف الكلم، وصرف ألفاظ الكتاب والسنة عن مواضعها، والتلطف في ذلك بأنواع الحيل اللطيفة من حملها على مجازات اللغة المستبعدة ونحو ذلك، والطعن في ألفاظ السنن حيث لم يمكنهم الطعن في ألفاظ الكتاب، ويذمون من تمسك بالنصوص وأجراها على ما يفهم منها ويسمونه: جاهلًا أو حسودًا، وهذا يوجد في المتكلمين في أصول الديانات، وفي فقهاء الرأي، وفي صوفية الفلاسفة والمتكلمين.

والثاني: نسيان حظ مما ذكروا به من العلم النافع؛ فلا تتعظ قلوبهم بل يذمون من تعلم ما يبكيه ويرق به قلبه ويسمونه: قاصًا.

التعليق:

أي: حتى ينسى أيضًا ما تعلم من العلم؛ لأن العلم يزداد بكثرة الإنفاق

فمتى عمل الإنسان بالعلم وبذله للناس زاده الله عز وجل علمًا، قال الله عز وجل: {وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ} [البقرة: ٢٨٢]، {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧]، فالإنسان إذا عمل بعلمه زاده الله عز وجل علمًا ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن العلم أيضًا: بذل العلم للناس، فهنا الإنسان يبذل علمه للناس هذا أيضًا من أسباب زيادة العلم كما قيل:

يزيد بكثرة الإنفاق منه *** وينقص إن به كفًا شددتا

فمتى أكثرت من الإنفاق في العلم وبذل العلم للناس زادك الله عز وجل علمًا وهدى وتوفيقًا.



ونقل أهل الرأي في كتبهم عن بعض شيوخهم: أن ثمرات العلوم تدل على شرفها؛ فمن اشتغل بالتفسير فغايته: أن يقص على الناس ويذكرهم، ومن اشتغل برأيهم وعلمهم فإنه يفتي ويقضي ويحكم ويدرس، وهؤلاء لهم نصيب من الذين: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧]، والحامل لهم على هذا شدة محبتهم للدنيا وعلوها، ولو أنهم زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة، ونصحوا أنفسهم وعباد اللهَ؛ لتمسكوا بما أنزل اللهَ على رسوله، وألزموا الناس بذلك، فكان الناس حينئذ أكثرهم لا يخرجون عن التقوى، فكان يكفيهم ما في نصوص الكتاب والسنة ومن خرج منهم عنهما كان قليلًا.

التعليق:

يعني في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من المواعظ

والزواجر والتذكير ما يكفي عن غيرها، فأعظم ما يوعظ به هو كلام الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]، كذلك السنة أيضًا.

وكذلك أيضًا: يحرص الإنسان على كتب أهل العلم، وكلام أهل العلم الذين عرفوا بسلامة عقيدتهم وصحة منهجهم وعلمهم أيضًا يحرص عليها، ويبتعد عن كتب أهل الضلال.

ولذلك يعني للفائدة أذكر جوابًا لشيخنا رحمه الله أجاب به سؤالًا: سأله شخص عن كتاب من الكتب وكان هذا الكتاب لرجل فيه كلام من حيث المنهج والسلوك والبدع، فقال رحمه الله عبارة جامعة قال: ما فيه من خير فهو موجود في غيره، أي: أن ما في هذا الكتاب من خير فهو موجود في غيره، كأن تقول: أنا سأقرأ هذا الكتاب؛ لأن فيه خيرًا، فنقول: ما فيه من خير موجود في غيره، يعني ليس الخير خاصًّا بهذا الكتاب، بل الخير الذي في هذا الكتاب ستجده في غيره مع سلامة في العقيدة.

والعقيدة أمرها أمر مهم جدًا، فإن الناس في الواقع بسبب انشغالهم بالدنيا غفلوا عن العقيدة، فشأن العقيدة شأن عظيم؛ فيجب علينا أن نحرص على تثبيت العقيدة في الناس، والناس الآن ضعف عندهم جانب التوكل على الله، جانب تفويض الأمور لله عز وجل، فصاروا يعتمدون على الأمور الحسية ويغفلون عما هو أعظم من ذلك من التوكل على الله والثقة به سبحانه وتعالى واللجوء إليه، فتجد أن

إنسانًا يعتمد على الأسباب الحسية، فيعتمد أن فلانًا هو الذي سيوفر له الوظيفة، وأن فلانًا هو الذي سيفعل له كذا وكذا، وما علم هذا الجاهل أن الفضل أولًا وآخرًا لله عز وجل، وأن فلانًا الذي أراد أن يفعل الذي فعل لك كذا، أو أراد أن يفعل لك كذا الله عز وجل هو الذي سخره لك، ولو شاء الله عز وجل ما فعل ذلك.

والحاصل: أنه يجب حقيقةً أن نحرص على تثبيت العقيدة في الناس من حيث بيان أنواع التوحيد والعبادة، وأن نربط الناس بالله عز وجل توكلًا وإنابة وخشية إلى غير ذلك.



فكان الله يقيض من يفهم من معاني النصوص ما يرد بها الخارج عنها إلى الرجوع إليها، ويستغني بذلك عما ولدوه من الفروع الباطلة، والحيل المحرمة التي بسببها فتحت أبواب الرياء وغيره من المحرمات، واستحلت محارم اللهَ بأدنى الحيل كما فعل أهل الكتاب.

التعليق:

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا ترتكبوا ما ارتكب أهل الكتاب فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**» يعني أن التحيل على المحارم من صنيع اليهود، فلما حرم الله عز وجل عليهم الصيد يوم السبت، كانوا يضعون شباكهم يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد ويقولون: نحن لم نصد يوم السبت، وذلك في قوله عز وجل: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ} [الأعراف: ١٦٣]، فلما حرم الله عز وجل عليهم الصيد يوم السبت ابتلاهم بأن يأتي الصيدُ يوم السبت، فكانوا يضعون شباكهم يوم الجمعة ويأخذونها يوم الأحد. وتأمل ما حصل من الصحابة حينما ابتلاهم الله عز وجل بالصيد: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ} [المائدة: ٩٤] انظر حال هؤلاء وحال الصحابة رضي الله عنهم.



فكان الله يقيض من يفهم من معاني النصوص ما يرد بها الخارج عنها إلى الرجوع إليها، ويستغني بذلك عما ولدوه من الفروع الباطلة، والحيل المحرمة التي بسببها فتحت أبواب الرياء وغيره من المحرمات، واستحلت محارم اللهَ بأدنى الحيل كما فعل أهل الكتاب: {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣].

وصلى اللهَ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وحسبنا اللهَ ونعم الوكيل.

التعليق:

اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.